الدكتور شوقي أبو خليل

الزلاقة

بقيادة

يوسف بن تاشفين

"قاتلوهم حتى لا تكون فتنة"

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

شوقي أبو خليل

الزلاقة

بقيادة

يوسف بن تاشفين

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

تصوير ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م
عن ط ٢ - ١٩٨٠ م

دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق



سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - برقياً : فكر - تلكس Tx FKR 411745 Sy

تصـــدير

✶ « ولا تهنـوا ولا تحـزنوا وأنتــم الاعلون إن كنتم مؤمنين » .

« آل عمران : ١٣٩ »

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سـيد المرسلين محمد بن عبد الله ، وعلى آله وأصحابه والتابعين ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين ، وبعد ..

قدّمت عام ستة وسبعين وتسعمائة وألف مسلسلاً إذاعياً الى إذاعة قطر ، في ثلاثين حلقة ، يحمل عنوان : « رَجُل طوى دولة » ، وكانت فيه سيرة النسر الذبيح ، شهيد نهاوند ، البطل المسلم النعمان بن مقرّن المزني . وطلب مني ثلاثون حلقة أخرى لشخصية مسلمة أخرى ، فوقع اختياري على « رَجُل أنقذَ دولة » ، فقدّمت ثلاثين حلقة جديدة ، فيها حياة مسلم عظيم ، هو يوسف بن تاشـفِين[1] ، واتبعت ذلك بمسلسل تحت عنوان « رَجُل أضاعَ دولة » ، وهو أبو عبد الله الصغير ، آخر ملوك بني الأحمر . وحديثنا في هذا الجزء الثامن من « المعارك الكبرى في تاريـخ الاسلام » عن الرجل الذي أنقذ دولة ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، وعن نصره العظيم في « الزّلاقة » .

---

(١) يوسف بن تاشـفِين ، أو تاشُفين .

وسنقدم في هذا الكتاب القسم الأكبر من حياة أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، علنّا نفيه جزءا من حقه ، وإن كنا هنا لسنا في صدد كتابة سيرة ، إننا هنا مع معركة كبرى حاسمة ، بطلها أبو يعقوب يوسف بن تاشفين ، الذي ظلمه مؤرخو تاريخ الاسلام، لأنهم لم يوفوه حقه ، ولم يوف تاريخ الاسلام حق يوسف المغرب، وقد وفّى القسم الأعظم من حقّ يوسف المشرق ، ووفّى تاريخنا القسم الأكبر من حق يوسف صلاح الدين الأيوبي، فزخرت المكتبة العربية الاسلامية بترجمات حياته ، وتحليلات سيرته ، وبدراسات حطين ، لذلك فالاسم قريب من مسامع الصغير والكبير ، والأمي والمتعلّم .

بينما لم يوفَّ من حق يوسف بن تاشفين إلا النذر اليسير، فبقي اسمه غريباً عن مسامع عدد غير يسير من مثقفينا . مع العلم أن البطلين تصديا لحركة صليبية واحدة ، تصدى صلاح الدين في المشرق لمعظم الدول الأوربية ، وتصدى ابن تاشفين في الأندلس للاسبان ومن معهم من الفرنسيين والألمان المرتزقة فلا غرابة إذا ما اعتبر سقوط طليطلة وسرقسطة في الأندلس موازياً سقوط بيت المقدس في المشرق .

ومن الأخطاء التاريخية أن مؤرخي الحروب الصليبية في المشرق ، ينسون الحروب الصليبية في المغرب ، بينما يدرس المغاربة الحروب الصليبية في المغرب والمشرق معاً ، ولا شك أن هذا هو الصواب .

ولما أردت أن أكتب عن الزلاقة وبطلها العظيم يوسف بن تاشفين فتّشت عن مصادر للبحث ، فكان من توفيق الله عز وجل أن الأخ العالم ، الأستاذ محمد بن ابراهيم بخّات من الرباط ، كان قد أهدى إلي مجموعة كتب ، كان منها كتابان هامان ، أفاداني كثيراً في كتابة هذا الجزء • وهما : « النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين » ، وكتاب : « المغرب عبر التاريخ » ، والكتابان للاستاذ ابراهيم حركات •

وعثرت على كتاب قيم جدا للمؤرخ الألماني « يوسف أشباخ[1] » ، ترجمه وعلق عليه الاستاذ محمد عبد الله عنان ، وحمل عنوان : [تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين] •

وأنا أتحسب قبل الاعتماد أو الرجوع الى مصدر أجنبي ، أتحسَّب من الدس ومن مجانبة الحقيقة ، وأخشى عرض وجهة النظر الأوربية الكنسيّة ، التي غالبا ما تحمل روح الصليبية في طياتها ، وتعرض وجهة نظر خاصة ، مبنية على عداء للاسلام وتاريخه ورجالاته • فهي بذلك مجانبة للحقيقة في أغلب الأحيان•

ولكنني وجدت هذا الكتاب يدرس التاريخ الأندلسي على

---

(١) ولد يوسف اشباخ في هكست من أعمال «ناساو» بألمانية سنة ١٨٠١م ، وقد تولى دراسة التاريخ في جامعة فرانكفورت ، ثم في جامعة بون ، ودرس العربية ، وعني بدراسة تاريخ اسبانية المسلمة عناية خاصة ، ثم وضع مؤلفين ، أولهما : « تاريخ الاموين في اسبانية » في مجلدين ، والثاني « تاريخ اسبانية والبرتغال في عهد سيادة المرابطين والموحدين » في مجلدين أيضا ، وقد ظهر الكتاب في فرانكفورت بين سنتي ١٨٣٣ ـ ١٨٣٧ • وطبع بعد ترجمته في القاهرة بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م•

ضوء المراجع العربية ، والكتاب ـ كما جاء في مقدّمته ـ يعتمد المصادر الاسلامية ويمحص الروايات الأوربية النصرانية . وبسبب قلة أخبار الزّلاقة وقائدها يوسف بن تاشفين في نفح الطيب ، والكامل في التاريخ ... فقد اعتمدت كتاب « يوسف أشباخ » بشكل رئيسي ، في هذا الجزء ، وفي الكتابة عن الموحدين في الأرَك والعقاب إن شاء الله . ومع ذلك فسيجد القارىء المتتبّع لهـذه السلسلة أن رأينا في الأحداث واضح ، وترتيباتنا المعهـودة في الأجزاء السابقة ستبقى متبعة في هذا الجزء أيضا .

وهكذا .. ومع أن كتاب « تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين » سيكون المرجع الموسع لنا لهذه الفترة التي نكتب عنها ، غير أننا سنعود الى مراجعنا الاسلامية للتحقق ، وسيجد القارىء ذلك جليا في طيات هذه الصفحات القادمة .

وسنرى في هذا الجزء أيضا دولة قوية توحد المغرب كله ـ لأول مـرة ـ تحت سلطة مركزيـة عاصمتها مَرّاكُش . وصِفت بأنها دولة خير وجهاد وعافية ، وأكثر الدول جرياً على السُّنَّة ، هذه الدولة صبغت المغرب بالاسلام الى الأبد ، وأبقت الاسلام في الأندلس أربعة قرون أخرى ، ووضعت حداً لمهزلة ملوك الطوائف ، وانقذت الأندلس من انهيار محقَّق ، وحققت نصر الزلاقة العظيم الذي اهتزت له نفوس المسلمين في كل بقاع العالم الاسلامي . كما حافظت على الوحدة الاسلامية ، حيث بقي أمراؤها يحكمون باسم الخلافة العباسية في بغداد . كما قدّمت رجلا من أبنائها فـذاً ، قلما يجود الزمن بمثله ، انه أبو يعقوب

يوسف بن تاشفين الصوّام القوّام ، الفاتح المجاهد ، الفارس العبقري ، المتواضع العادل ، الذي جمع حسن الخلقة والجسم ، الى جمال الخلق والايمان ، وجمع مع السلطان والامارة التواضع واحتقار الترف في الملبس والمسكن ، فكان طعامه خبز الشعير ، وشرابه لبن الابل ، وهذا التقشف متعه - مع صفاء النفس - بصحة بديعة ، فعاش مائة سنة من الزمن مجاهداً .

إنه أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بطل نصر الزلاقة العظيم ، وأحد أولئك الرجال الأفذاذ الذين يلوح أن القدر قد اصطفاهم لتغيير وجه سير أحداث التاريخ ، فانتصاره العظيم في الزلاقة لم يجعله فاتحاً كبيراً وعبقرياً عسكرياً فحسب ، بل مجاهدا في سبيل الاسلام يتحلى وجنده المرابطون بدين متين ، وبخاصة اذا علمنا أنه عفَّ ، وعفَّ جنده عن غنائم الزلاقة ، وتركها لملوك الطوائف .

لن أطيل الحديث عن أبي يعقوب في هذا التصدير ، فاعجابي به يجعل لهذا الحديث شجونا ، ولكنني سأترك للقارىء خلال صفحات هذا الجزء من « المعارك الكبرى في تاريخ الاسلام » أن يحكم على هذه الشخصية الاسلامية الملتزمة ، ويعطيها حقها وقدرها .

فالى أحداث الزلاقة ، وبطلها العظيم أبي يعقوب يوسف ابن تاشفين .

وعلى بركة الله .

شوقي أبو خليل

ص.ب ٦٢٣٢
دمشق - سورية

دمشق في : ١١ ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ .
الموافق : ١٠ آذار ١٩٧٩ م.

حَالُ المسلمين في الأندلس

✶ في النصف الثاني من القرن الحادي عشر كان المسلمون في الأندلس فيما بينهم أشد خصومة وتطاحنا من أعدائهم ، ولم يتورع بعضهم عن التحالف مع الدول النصرانية ، أو يستمد عونها نظير الجزية .

انتصرت رايات العباسيين في الشرق على رايات بني أمية ، ولكن سلطة الأمويين لم تنته بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ لأن عبد الرحمن الداخل استطاع أن يؤسس إمارة أموية في الأندلس سنة ١٣٨ هـ .

وبدأ عصر الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) ، عندما أعلنها عبد الرحمن الناصر ، الذي كان أميراً حازماً ، وذكياً عادلا ، وعاقلا شجاعاً ، محبّاً للاصلاح وحريصا عليه . قاد الجيوش بنفسه ، فأنزل العصاة من حصونهم ، لشجاعته وسياسته الحكيمة ، بالسيف أو بالسياسة الرشيدة التي اتبعها ، أحبه شعبه وأخلص له ، فقد كان هو نفسه قدوة له ، لذلك استطاع أن يقضي على العصاة ويعيد للأندلس وحدتها وقوتها ومكانتها .

أدّب المتمردين من حكام الشمال الاسباني ، وجعلهم يدركون قوة الأندلس ، حتى انقلب تحرشهم الى خضوع تام

لرغباته . وبلغت الأندلس من القوة في زمانه أن حكام اسبانيــة الشمالية كثيراً ما طلبوا الى السلطات الأندلسية التدخل في حل مشاكلهم .

وبسبب ضعف الخلافة العباسية وقيام الخلافة الفاطمية في الشمال الافريقي ، حيث أصبحت تهدد سلطة الأندلس ، أعلن عبد الرحمن الناصر الخلافة في الأندلس ، وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله[١] .

وفي عام ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م بدأ عصر الطوائف في الأندلس، الذي دام حتى عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م .

لقد انقضت الخلافة الأموية في الأندلس ، وذهبت ضحية غطرسة الحرس الخليفي وبغيه ، ونتيجة أطماع الولاة ، وبسبب انحلال الشعب الذي فقد حبه وولاءه للاسرة الحاكمة ، فكان ذو البأس والوجاهة يجنح الى استخدام قواه ونفوذه لمجده الشخصي، لا لهيبة الدولة ومجدها . وهكذا سقطت الخلافة الأمويــة في الأندلس بسبب تناقضاتها الداخلية ، وليس من جراء قوة أعدائها من الخارج .

وقد انقسمت الأندلس الى دويلات ، واتخذ حكامها ألقابهم تبعاً لحجم دويلاتهم ، فأحدهم : ملك أو أمير ، والٍ أو قاضٍ .. ونظراً لتباين القوى والرياسات، فقد أخذ القوي يبطش بالأضعف،

---

(١) التاريخ الأندلسي ، ص : ٢٩٨ ، عن : البيان المغرب : ٢٣٣/٢ ـ ٢٢٤ ، وابن خلدون : ٢٩٨/٤ ، ونفح الطيب : ٣٥٣/٤ .

والأضعف يدرأ الخطر بالتحالف مع جار الأقوى ؛ هـذا إذا لم يستنجد بأمراء النصارى مقابل ثمن باهظ .

وتكوّنت من هاته الدويلات العديدة ، أربع دول رئيسة :

١ ـ في جنوب الأندلس ، حكم الأدارسة الأفريقيون أو بنو حمود أصحاب مالقة ، وحالفهم أمير غرناطة وقرمونة ، وألبيرة وجيان واستجة ، فضلا عن حكمهم مليلة وطنجة وسبتة في شمال المغرب .

٢ ـ بنو عباد أمراء اشبيلية ، أقوى ملوك الطوائف ، ومن حلفائهم بنو جهور في قرطبة ، وبنو الأفطس أصحاب بطليوس في جنوب غرب الاندلس .

٣ ـ بنو ذي النون أمراء طليطلة ، الذين حكموا أواسط اسبانية ، والذين وقفوا في وجه بني عباد ، وكلفهم ذلك دفع جزية لملك قشتالة النصراني ، التماساً لعونه ضد خصومهم .

٤ ـ بنو عامر في بلنسية ومرسية الذين حكموا في شرقي إسبانية ، وطبقاً لظروفهم ، فقد كانوا يحالفون الأدارسة تارة ، أو بني عباد ، أو بني ذي النون تارة أخرى .. وبسط بنو عامر نفوذهم على الثغور الممتدة من المرية حتى مصب نهر أبرة سنة ١٠٥١ م[١] .

* * *

(١) راجع في نهاية الكتاب « ملوك الطوائف » .

الصراع بين طليطلة وقرطبة

كانت حال المسلمين في الأندلس في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي) خصومة وتطاحناً ، حتى إن بعضهم لم يتورع عن التحالف مع الدول النصرانية ، أو أن يستمد عونها نظير الجزية • حتى أن المأمون يحيى بن ذي النون ، الذي خلف أباه سنة ١٠٤٣ م في إمارة طليطلة ، اغتنم عون حليفه القوي عبد العزيز بن أبي عامر ، واستأجر الفرسان القشتاليين ليبطش بمحمد بن جهور أمير قرطبة، فاستجار محمد بن جهور بجيرانه بني عباد أصحاب اشبيلية ، وبني الأفطس أصحاب بطليوس لمعاونته ضد طليطلة التي كانت تهددهم جميعا ، كما سار أمراء لبلة وولبة وجزيرة شلطيش•• الى الانضمام الى الحلف ، ففوضوا عبد العزيز اليحصبي صاحب لبلة في أن يعقد باسمهم محالفة مع قرطبة[١] •

سار الجميع تطبيقاً لهذا التحالف لانجاد قرطبة ، فانتهز ابن عباد أمير اشبيلية هذه الفرصة واكتفى بارسال خمسمائة فارس الى ابن جهور . وزحف في جيش قوي على لبلة وولبة وجزيرة شلطيش واكسونبة واستولى عليها ، ثم فتح قرمونة سنة ١٠٥٣م•

(١) طليطلة وأميرها المأمون يحيى بن ذي النون ومعه بلنسية والسهلة وقشتالة وكثير من الجند المرتزقة • أما قرطبة فأميرها محمد بن جهور ومعه اشبيلية وبنو الأفطس (بطليوس) وبعض الامراء الصغار •

طالت الحرب بين طليطلة وقرطبة ، ودامت أعواما ، وكانت سجالا ، وأراد المأمون صاحب طليطلة حسم الموقف ، فأوقع بقوات قرطبة وحليفاتها هزيمة شديدة ، واستطاع الوصول الى قرطبة فحاصرها ، فبادرت اشبيلية الى اغاثتها ، فارسل ابن عباد ابنه محمداً على رأس جيش قوي فيه وزيره ابو بكر محمد بن عمار الموصوف بوفرة الذكاء ، وبالبراعة والدهاء ، وزودهما بخطة وأوامر سرية خاصة .

هاجم جيش ابن عباد الجيش المحاصر لقرطبة ، فاضطر الى رفع الحصار ، وارتد عنها ، وخرج القرطبيون ليطاردوا أعداءهم، فأتموا بذلك هزيمة الطليطليين .

وتنفيذاً لخطة ابن عباد السرية ، اغتنم ابن عمار الفرصة عندما كان جيش قرطبة مشغولا بمطاردة المأمون وجيشه الطليطلي، فسار الى قرطبة ، ودخلها دون معارضة ، واحتل مراكزها الحصينة قبل أن يفطن القرطبيون الى أن أصدقاءهم قد انقلبوا عليهم . وهكذا انهارت دولة بني جهور في قرطبة ولم يمض على قيامها ثلاثون عاما في محنة محزنة ، وعندئذ غدا ابن عباد أمير اشبيلية أقوى أمراء الأندلس المسلمة .

جزع المأمون أمير طليطلة من قوة ابن عباد أمير اشبيلية التي تزداد باستمرار ، وبخاصة بعد أن حالفه العامريون أمراء قسطلون ومربيطر وشاطبة والمرية ودانية . فحاول التحالف مع صهره ــ زوج ابنته ــ عبد الملك المظفر حاكم بلنسية الذي رفض ذلك محتجاً بأن وقوف العامريين الى جانب اشبيلية يجعل اقدامه على هذا التحالف

خطرا على بلنسية . فما كان من المأمون إلا أن عقـد حلفاً مع فردناند الأول صاحب قشتالة .

وانقضت القـوات المشتركة المتحالفـة (قوات المأمون وفردناند الأول) على بلنسية ، فسقطت ولاية بلنسية كلها في يد المأمون في تشرين الأول سنة ١٠٦٥ م ، عـاد بعدها الى طليطلة ليستعد لمحاربة ابن عباد . ولكن حال دون ذلك وفاة فردناند الأول . وقيام حروب شديدة بين أولاده الثلاثة ، فنقض المأمون عهده مع قشتالة ، وامتنع عن دفع الجزية ، مما أدى الى حرمانه من معاونة النصارى ، وهي المعاونة التي لم يكن يستطيع بدونها لقاء أمير اشبيلية ، فلما تم الأمر لسانشو (شانْجُة) ابن فردناند سنة ١٠٧٠ م ، هرب أخوه ألفونسو الى المأمون صاحب طليطلة ، والتجأ أخوه الثاني جارسيه الى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية[1] .

وفي سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م توفي المعتضد بن عباد أمير اشبيلية ، فخلفه ابنه محمد الملقب بالمعتمد على الله ، الذي لم يكن أمامه ما يخشاه باستثناء أمير طليطلة الذي كان يحكم بلنسية في الوقت ذاته . أما بقية الطوائف الاسلامية الأخرى بالاندلس ، فقد حطمها الحروب الداخلية ، أو غزوات النصارى .

ولم يوفق المعتمد في حروبه مع المأمون الذي حصل بنصره

---

(١) قسم فردناند قبل وفاته مملكته قشتالة بين أولاده الثلاثة ، وضع شانجة ابنه الاكبر بقشتالة ، والفونسو في الفنس ، بليون وأشتوريش ، وجارسيه بجليقية والبرتغال . ولكن الحرب ثارت بين الاخوة انتصر فيها شانجة ، وعاد الفونسو الى حكم قشتالة باسم **الفونسو السادس** بعد وفاة أخيه الاكبر ، فحكم ما بين ٤٦٥ – ٥٠٢ هـ / ١٠٧٢ – ١١٠٩ م ، وهو الذي سيقود النصارى في معركة الزلاقة .

الباهر سنة ١٠٧٣ م على مرسية وأريولة وعدة مدن أخرى ، وبذا أصبح الأمير الأقوى يسيطر على أواسط اسبانية كلها ، وبخاصة بعد أن فاز ألفونسو بحكم قشتالة بعد وفاة سانشو « شانجة » ، وتحالف مع المأمون الذي رعاه وحماه عند محنته، وتعاهد الأميران على أن يرتبطا معاً برباط الصداقة الوثيق .

ونتيجة لهذه الأحداث بدا هلاك صاحب اشبيلية ألد أعداء طليطلة أمراً لا مناص منه ، ورأى المأمون ألا يترك لابن عباد فرصة لكي يقوي نفسه بالتحالف مع بني هود أصحاب سرقسطة، وبني الأفطس أصحاب بطليوس ، ورأى أيضاً أن يقضي نهائياً على الأدارسة ، فبادر بمهاجمة خصمه من ثلاث جهات لكي يحكم تسديد الضربة الى قرطبة ، فسقطت دون مقاومة تذكر سنة ٤٦٨ هـ . ولكن المأمون توفي بعد دخولها بأيام قلائل ، فارتد جنده عنها الى طليطلة ، وعاد ابن عباد فاسترد قرطبة ، وبقيت اشبيلية مع بني عباد حتى استولى عليها المرابطون سنة ٤٧٤ هـ .

حكم طليطلة ــ التي غادرها حسن طالعها بوفاة المأمون ــ القادرُ الذي اعتمد على معاونة ملك قشتالة ، فرأى ابن عباد أنه إذا أراد أن يحقق سيادته على اسبانية المسلمة كلها فلا بد له من ابعاد هذا الحليف القوي عن بني ذي النون ، مهما كلفه ذلك من عظيم التضحية .

وقد أصبحت الظروف كلها مواتية لأمير اشبيلية ، فأرسل وزيره البارع ابن عمار الى ليون عاصمة قشتالة يومئذ ، ففاز بعقد

تحالف مع ألفونسو ، تعهد بها ملك قشتالة بمعاونة أمير اشبيلية بالجند والمرتزقة ضد جميع المسلمين ، ويتعهد ابن عباد مقابل ذلك أن يدفع الى ملك قشتالة جزية كبيرة ، وتعهد بألا يعترض مشروع ألفونسو في افتتاح طليطلة . وهذا أمر خطير ورهيب ، فقد ضحى المعتمد بمصالح اسبانية المسلمة ، لكي يفوز ببسط سيادته على الإمارات التي لم تخضع له بعد ، وهي إمارات غرناطة وبطليوس وسرقسطة .

وفي سنة ١٠٧٩ م أعلن ألفونسو الحرب على طليطلة التي حمته من مطاردة أخيه سانشو ، وعلى الرغم من أنه كان لا يزال الى تلك الآونة يرتبط ببني ذي النون بروابط الصداقة فقد نسي الأمير الظامىء الى التوسع كل ما يفرضه العرفان بالجميل والصداقة ، وتفرضه العهود . واستعان بمعرفته لنواحي طليطلة أيام إقامته منفياً بها على الغدر بأولئك الذين أولوه حمايتهم ورعايتهم ، وقد شعر المؤرخون النصارى بلا ريب بفداحة هذا العدوان ، وهذه الخيانة . فلم يذكروا شيئاً عن التحالف بين ألفونسو وأمير اشبيلية . والتزموا الغموض في رواية الحادث ، حتى لا تبدو شناعته . معتمدين في ذلك على موضوعيتهم المغرضة في البحث ، ومتعمدين في التظاهر عن الانحراف مع الأهواء أثناء تدوين تاريخنا الاسلامي !!

في هذه الآونة كان أمير اشبيلية قد سار بجيشه الى غرناطة ليخضع أميرها عبد الله بن بلكين بن باديس الى سلطانه ، وكان

ابن هود أمير سرقسطة يرى الخطر يشتد عليه يوماً فيوماً من سانشو الأول ملك أراجون ، فلم يستطع انجاد طليطلة سوى أمير بطليوس يحيى بن الأفطس الملقب بالمنصور ، فجمع قواته وسار إلى لقاء ألفونسو ، ولكن ألفونسو الذي كان قد أثخن في ولاية طليطلة ، حتى صيرها قفراً بلقعاً ، شعر باقتراب المنصور فارتد عنها ، ولكنه عاد في العام التالي فعاث في بسائط طليطلة وخربها مرة أخرى ، وزحف المعتمد على بطليوس ، وبذا استطاع أن يحول دون معاونة بني الأفطس لطليطلة حيث القادر بن ذي النون ، ولم يستطع أمير سرقسطة من بني هود «المؤتمن» معاونة القادر معاونة قوية خشية أن تقع سرقسطة ذاتها فريسة لابن عباد أو للنصارى ، وهو في جهاد ضد أراجون وبرشلونة .

واستطالت الحرب أعواماً ، وألفونسو يعيث في بسائط طليطلة أيما عيث ، **وفي السابع والعشرين من المحرم سنة ٤٧٨ هـ / الخامس والعشرين من أيار (مايو) سنة ١٠٨٥ م ، استطاع أن** يدخل طليطلة (عاصمة القوط القديمة) ، ودخلت طليطلة بذلك الى حظيرة النصرانية بعد أن حكمها المسلمون ثلاثمائة واثنين وسبعين عاماً ، واتخذها ملك قشتالة حاضرة ملكه من ذلك الحين، وغدت بذلك عاصمة اسبانية النصرانية .

وهكذا اختتمت دولة بني ذي النون في طليطلة لتستمر في بلنسية[1] .

---

(١) استجار أهل طليطلة بكل ملوك الطوائف ، وما من احد أجارهم ، بل أعلن =

أحدث سقوط طليطلة رد فعل عنيفاً ، أثار المسلمين في أنحاء الأندلس كلهـا ، وانطلق الخطبـاء والشعراء في استثارة الهمم والتحريض على الجهاد ، والتحذير من تفاقم الخطر ، ومما قيل في ذلك :

يا أهل أندلس حثوا مطيّكم	فما المقـام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى	ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عـدو لا يفارقنـا	كيف الحياة مع الحيّات في سفط

ومن ذلك أيضا :

يا أهل أندلس ردوا المعار فما	في العـرف عارية إلا مردات
ألم تروا بيـدق الكفار فرزنه	وشاهنا آخر الأبيات شهمات

ومما يذكر أنه لم يك ثمة ما هو أكثر من رومة ادراكا للحاجة الى الجهد والتنسيق ، لاسيما بعد أن هدد المسلمون رومة ذاتها عندما هاجموها ووصلوا الى كنيسة القديس بطرس سنة ٨٤٦م • وتولى امر توجيه وتنسيق التعاون في تلك الفتـرة دير كلوني الضخم ، الذي امتدت رئاسة اثنين له نحو ١١٥ سنة ، وهما أوديلو الذي تولاه سنة ٩٩٤ م ، إلى وفاته سنة ١٠٤٨ م ، ثم خلفه على

=
بعضهم خصوعهم لألفونسو ، حتى أن وفد طليطلة الذي قابل ألفونسو بقوة وجرأة ، قال له ألفونسو : ألم تنتظرون المدد ؟، قالوا : نعم ، فنادى رسل ملوك الطوائف وفدا وفدا ، واذا بالجميع يقدمون الطاعة والولاء والجزية ، وطليطلة تهاجم وتحاصر ، ثم سقطت ، وملوك الطوائف تنظر •

الرئاسة هيو الذي عاش حتى سنة ١١٠٩ م ، ووجه اهتماما خاصا نحو اسبانية ، لتدبير الهجوم المضاد الكبير ضد المسلمين ، الذي تولى قيادته سانشو .

وهكذا بدأ القتال ضد المسلمين في اسبانية يتخذ صفةالحرب الصليبية ، ولم يلبث البابوات حتى صار لهم دور في توجيهها[١] .

لقد سقطت طليطلة[٢] ، وكان سقوطها ضربة قاضية على التفاهم بين ألفونسو وأمير اشبيلية ، لأن ألفونسو لم يقنع بطليطلة، بل استولى على جميع الأراضي الواقعة على ضفتي نهر تاجة ، وعلى قلاع مدريد ومقودة ، ووادي الحجارة ، وقلعة رباح ، بل غـدا يهدد قرطبة وماردة وبطليوس . وهكذا جزع المعتمـد وساوره الندم على تحالفه مع ملك النصارى ، فكتب المعتمد الى ألفونسو ألا يتعدى في فتوحاته طليطلة ، فان هو فعل ، فان ذلك يعتبر خرقاً للتعاهد . ولكن ملك قشتالة لم ير في انذار حليفه ما يحمله على التوقف عن سيره المظفر ، ونوى افتتاح الولايات المسلمة كلها ، وأضحت سرقسطة مهددة بمصير كمصير طليطلة . وهنا رأى الأمراء المسلمون جميعاً شبح السقوط ماثلا أمام أعينهم ، فاتحدوا لأول مرة ، واجتمعت كلمتهم على أن يضعوا حداً لفتوح ألفونسو ، وإذا كانت قواهم مجتمعة لا تكفي لرد عدوانه ، فقد اتفقت كلمتهم

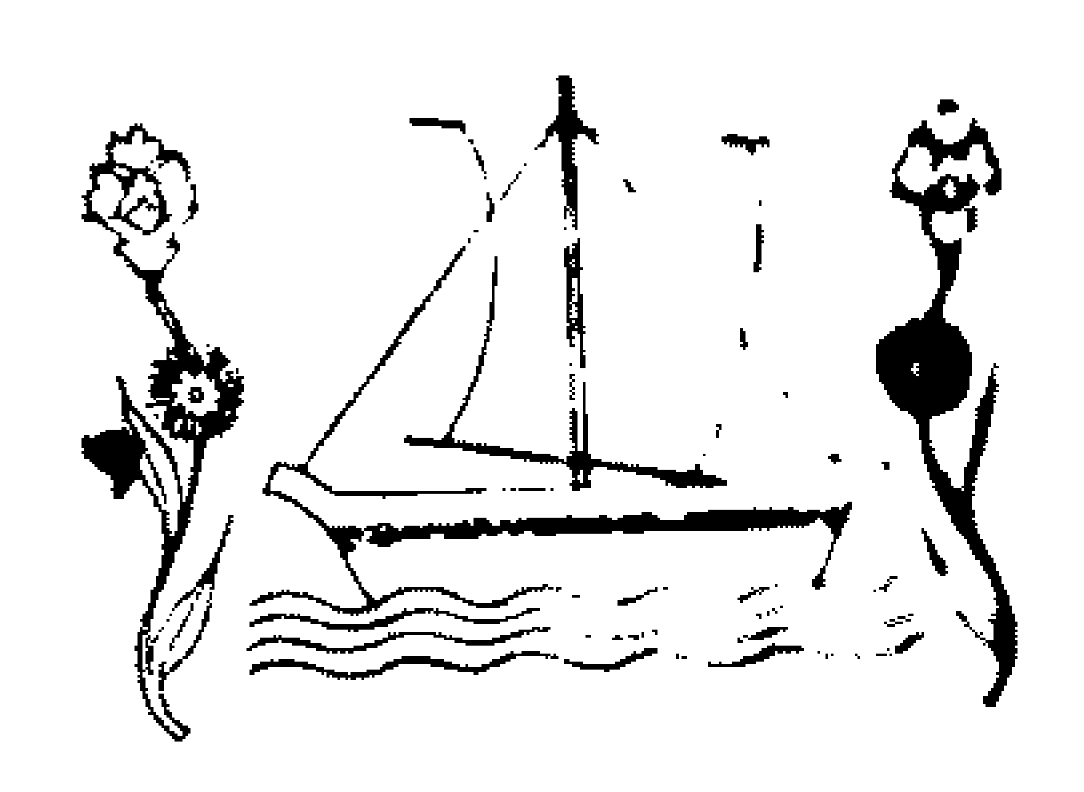
---

(١) الايام الحاسمة في الحروب الصليبية ، بسام العسلي ، ص : ٤٥ ومابعدها.

(٢) طليطلة كانت هدف الفتح الاسلامي الاول عند فتوح طارق بن زياد ، وكانت أول مدينة سقطت في أيدي النصارى . وتمثل الخط الاول للمسلمين في كفاحهم ضد النصارى ، وهي من أحصن ثغور المسلمين ، ومن أشدها مناعة .

على الاستنجاد بالمرابطين في افريقية ، واستدعائهم الى الاندلس ، علماً ان ملوك الأندلس كانت ترهب الفرنج باظهار موالاتهم لملك المغرب يوسف بن تاشفين ، وكان له اسم كبير لنقله دولة زناتة وملك المغرب اليه في أسرع وقت ، وكان قد ظهر لابطال الملثمين في المعارك ضربات بالسيوف تقد الفارس ، وطعنات تنظم الكلى ، فكان لهم بذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتالهم[1] .

فمن المرابطون ؟



(١) ... الاعلام ، ج : ٧ ، ص : ١١٤ .

المرابطون

٤٤٠ هـ - ٥٤٢ هـ

✶ « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ».

« آل عمران : ٢٠٠ »

يسكن البربر المغرب العربي ، وينقسمون الى قسمين :

١ — بتر ومنه قبائل : زناتة ولواته ومطغرة ومديونة .

٢ — برانس ومنه قبائل صنهاجة ومصمودة .

والملثَّمون من صنهاجة الصحراء الكبرى . ومن قبائل الملثَّمين : جزولة ولمطة وجدالة ومسوفة ودكالة وهسكورة ولمتونة . وكانت الرياسة في الملثَّمين للمتونة[1] . وكان دينهم المجوسية[2] .

اطلع يحيى بن ابراهيم اللمتوني على مبادىء الاسلام ، وعلى العلوم والمعارف التي كانت ذائعة في العالم الاسلامي في أواسط القرن الحادي عشر الميلادي ، فعقد العزم على ألا يدخر وسعا في

(١) اللمتونيون اشتق اسمهم من ثوبهم البسيط « اللمت » ، ويقول ابن خلدون : يرجع أصلهم الى قبيلة صنهاجة التي نزحت من بلاد العرب الى المغرب على شواطىء الاطلسي . ابن خلدون : ١٥٣/٦ ، روض القرطاس : ٧٥ .

(٢) ابن خلدون « العبر » ، ج : ٥ ، ص : ١٨٤ .

تثقيف اللمتونيين في صحاريهم بعلوم الاسلام ، واحتاج الى عالم مسلم ، فوقع على بغيته أثناء مقامه بالقيروان على يد فقيه من معارفه ، وألفى طلبه في رجل يضطرم غيرة لتلك المهمة الشاقة ، وهي تثقيف أولئك البدو الصحراويين ، وكان عبد الله بن ياسين، تلميذ الصوفي الكبير أبي عمران الفاسي •

وكانت قبائل لمتونة وكدالة ومسطاسة تعرف باسم مشترك هو « الملثمون »[١] ، وهم الذين نفذت اليهم دروس عبد الله بعد عناء ، فرفعوه الى أعظم مقام ، حتى أن أبا زكريا يحيى بن عمر زعيم الملثمين ، أعلن أنه تلميذه وتابعه ، فاختاره عبد الله ــ وهو الامام وصاحب الأمر ــ أميراً وقائداً ، يقود المجاهدين الى ميدان الحرب ، وأطلق الملثمون على أنفسهم اسماً جديداً هو « المرابطون » •

أخذت هذه التسمية الجديدة من « الرباط » ، رباط المجاهدين وخيولهم بازاء العدو في الثغور ، ومنه المرابط ، وهو من لازم الثغر لدفع العدو ، وقد أخذت التسمية من قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون[٢]) •

---

(١) الملثمون : سموا بهذا الاسم اما لانهم كانوا يتخذون في أعراسهم نوعا خاصا من الحجاب ، أو لانه حدث ذات مرة في بعض حروبهم أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات في عداد الرجال • « الاستقصاء ، جـ : ١ ، ص : ٩٨ » • ــ ومما قيل في اللثام:

قوم لهم درك العلا في حمير ... وان انتموا صنهاجة فهم هم

لما حووا احراز كل فضيلة ... غلب الحياء عليهم فتلثموا

(٢) سورة آل عمران ، الاية الكريمة : ٢٠٠ •

هؤلاء « المرابطون » كان الاسلام لهم ــ كما هو دائما في اتباعه الخُلَّص ــ كيمياء سحرية ، فأحياهم بعد موتهم ، وعلَّمهم بعد جهلهم ، فقاموا للفتح ، لنشر النور والهداية ، فتوسَّعوا في المغرب الأقصى ، ففتحوا موريتانيا بفرسان مهرة ، ومشاة بارعين في فنون القتال ، يحملون حراباً بالغة الطول . وكانوا يحرزون النصر بجرأتهم وجَلَدهم في كل حرب . وكان زعيمهم يتقدَّمهم محارباً في أول الصفوف يـذكي شجاعتهم وبسالتهم . على أن هـذا الاغراق في الجرأة من جانب القائد يحيى أبي زكريا لم يكن مما يرضي الامام عبد الله بن ياسين ، حتى أنه أمر به ذات مرة فعوقب على تهوره[1] ، ومع ذلك فإن أبا زكريا لم يفارقه شغفه بخوض المعارك في صميم لظاها ، حتى سقط ذات يوم شهيدا في احـدى الوقائع ، فاختار الامام بما له من السلطة العليا أخا أبي زكريا (أبا بكر بن عمر) مكانه .

وفي عام ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م استشهد عبد الله بن ياسين في حروب المرابطين . وكان رحمه الله شديد التقشف في مأكله وشربه ، وكان خطيباً موهوباً قوي التأثير والاقناع ، واسع العلم والمعرفة ، وبلغ من نفوذه ان فتح المغرب كله ، وأخضع القبائل البربرية ، وساعده في ذلك تعاليمه التي كانت غاية في البساطة .

نشر ابن ياسين المذهب المالكي الذي تناسب وبساطة المرابطين الصحراوية . فليس من شأن المذهب المالكي استخدام الرأي ، أما

---

(١) روض القرطاس ، صفحة : ٨١ .

القياس ففي آخر درجة ، وأما الكتاب والسنة فإنما يليهما في الرتبة عمل أهل المدينة المنورة • وليس كذلك مذهب أبي حنيفة الذي يسلك طريق الجدل والرأي واستخدام العقل، وكان مسلمو المدينة وطلبتهم على الأخص ينظرون الى علم أهل المدينة وعلمائها نظرة من يتمثل فيها وفيهم رمز الاسلام ، ومثال الطهر والصفاء[1] •

ولما توفي عبد الله بن ياسين قبض أبو بكر زكريا بن عمر زمام الحكم دون شريك ، ولم يكن من قبل سوى قائد للامام •

وبينما كان أبو بكر مشغولا بتخطيط عاصمته الجديدة (مراكش)[2] عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م ، نشبت حرب أهلية بين قبيلتي كدالة ولمتونة ، فهرع الى الصحراء لكي يحول بتدخله دون أن تبطش احدى القبيلتين بالأخرى ، ولما تعذر اقناع القادة من الفريقين بعقد الصلح ، بادر الأمير الى نجدة لمتونة في خيرة جنده، واستخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين بن ابراهيم ، من قبيلة صنهاجة على العاصمة الجديدة وأمره أن يتم تخطيطها وبناءها •

عاد أبو بكر سنة ٤٦٥ هـ (كما في الحلل الموشية) ، فتلقاه يوسف بن تاشفين بالهدايا الثمينة ، فعرف أبو بكر أن الأمور قد

---

(١) « النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين » الاستاذ ابراهيم حركات ، ص : ١٢٠ •

(٢) كانت مدينة « أغمات » عاصمة المرابطين قبل بناء مراكش ، وهي على بعد ٣٥ كم جنوب شرق مدينة مراكش • ومما يذكر أن يوسف بن تاشفين شارك العمال بنفسه في بناء المسجد في العاصمة الجديدة ، ومراكش معناه امش مسرعا بلغة المصامدة، كان موضعها مأوى اللصوص ، وكان المارون فيه يقولون لرفقائهم هذه الكلمة ، فعرف الموضع بها •

استقرت ليوسف ، فلم يطمع في الملك لنفسه ، وتنازل ليوسف عن ولاية المغرب طواعية ، ثم عاد الى الصحراء يصحبه نصف جيش الملثمين ، وعاش أبو بكر يجاهد في بلاد السودان ، ويعمل فيها على نشر الاسلام حتى توفي هناك سنة ٤٨٠ هـ • وقلما يسجل لنا التاريخ مثل هذه الحادثة الرائعة التي يتنازل فيها عن الحكم للأكفأ والأفضل والأصلح والأمهر •

* * *

وقبل الحديث عن شخصية يوسف بن تاشفين ، نتطلع الى مصور العالم عند نشوء دولة المرابطين لنرى المعاصرين والظروف المحيطة بهذه الدولة الفتية وبزعيمها ذي المواهب •

كانت أوربة تحت رحمة الاقطاعيين في حالة أقرب الى الهمجية منها الى المدنية ، وكان العالم الاسلامي مجزأ عند قيام دولة المرابطين . ففي الاندلس ملوك الطوائف ، والسلاجقة استولوا على العراق من يدي بني بويه ، والفاطميون في مصر • ولا ننس أن المرابطين شملت دولتهم أجزاء شاسعة من شمالي افريقية (تونس والجزائر والريف في المغرب) وضربت في الصحراء حتى نهر النيجر والسنغال ، فرفعوا راية الاسلام من طرفاية حتى ساحل الذهب[١] •

وفي ظروف سياسية حرجة وصعبة قاسية كانت تواجه العالم

---

(١) « المغرب عبر التاريخ » ج : ١ ، ص : ١٦٤ للاستاذ ابراهيم حركات ، طبع ونشر دار السلمى بالدار البيضاء (١٩٦٥) .

الاسلامي . حيث طرد السلاجقة الخليفة العباسي من بغـداد ، واستعد وزير فاطمي بالافرنج ، كان المرابطون يعملون على رفع لواء الاسلام بالمغرب الى الابد ، وفي الأندلس لمدة أربعة قرون اخرى . وكما قيض الله لمصر والشام بالشرق بعد ذلك بقليل من رفع الرأس عاليا يوسف صلاح الدين الايوبي[1] ، قيض سبحانه للمغرب العربي يوسف بن تاشفين .

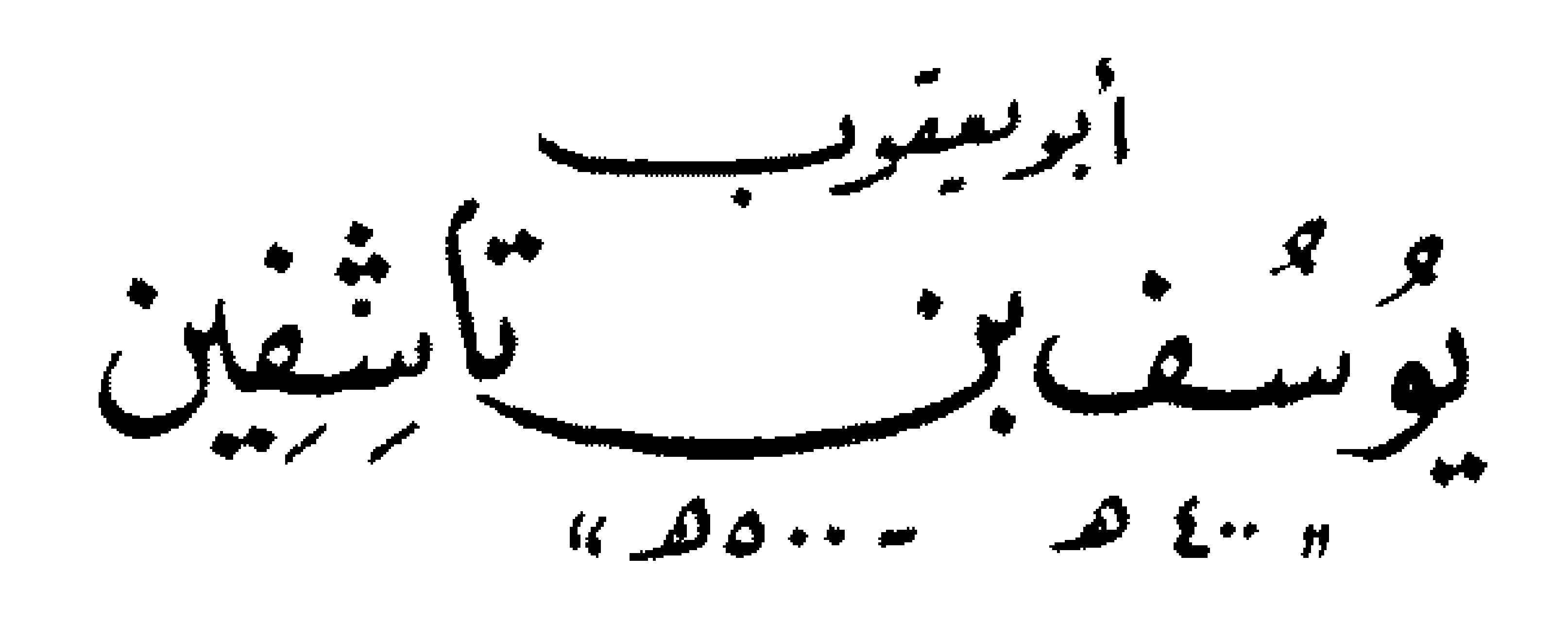
ومما هو جدير بالذكر أن المرابطين حافظوا على الوحـدة الاسلامية . فلم يتخذوا لقب الخلافة ، واستمدوا وضعيتهم الشرعية من اعتراف الخلافة العباسية بدولتهم ، فقـد أرسل يوسف بن تاشفين سفارة الى الخليفة المستظهر مكونة من عبد الله المغافري الاشبيلي وولده أبي بكر . وطلب منه أن يعقد ليوسف على المغرب والاندلس فعقل[2] ، ووجه اليه عهدا بذلك . ولما سبق ، فانه لمـا ضربت السكة عام ٤٥٠ هـ قرنت باسم الخليفة العباسي ، هـذه السكة التي كان الدينار أساسها ، أضحت نقداً دولياً إذ وصل الى القسطنطينية .



---

(١) الذي عاصر زميله الكبير في المغرب المنصور الموحدي .

(٢) ابن خلدون « العبر » ، ج : ٦ ، ص : ٣٨٦ ، وكان أشياخ المرابطين وأعيانهم دعاوا الى تسمية يوسف بن تاشفين بأمير المؤمنين ، ولكن يوسف رفض بتاتا وقال : « حاشا لله أن نتسمى بهذا الاسم ، انما يتسمى به خلفاء بني العباس ، لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، لانهم ملوك الحرمين مكة والمدينة ، وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم ». الحلل : ١٨ .



★ رجل خلق للزعامة والفتح ، وحد المغرب كله تحت سلطة مركزية ، كما كسب محبة شعبه مع عواطف التوقير التي وطدتها صرامته وعدالته .

عاد أبو بكر من الصحراء ـ كما مر معنا ـ فقال ليوسف بن تاشفين : « أنت أخي وابن عمي ، ولم أر من يقوم بأمر المغرب غيرك ، ولا أحق به منك ، وأنا لا غناء لي عن الصحراء ، وما جئت إلا لأسلم الأمر اليك ، وأهدنك في بلادك ، وأعود الى الصحراء مقر اخواننا ، ومحل سلطاننا »(١) .

وطّد يوسف بن تاشفين سلطانه في المغرب الأقصى ، فهو الرجل الذي خلق للزعامة ، فوحّد المغرب كله ـ ولأول مرة ـ تحت سلطة مركزية ، وتجلت مواهبه منذ استلامه زمام السلطة ، وظهرت أخلاقه الرائعة في الحكم منذ أيامه الأولى : تواضع ، حياء ، قناعة ، شدة ذكاء ، عزيمة قوية مع حياء ... لقد جمع مع جمال الطلعة والجسم ، جمال الخلق الذي تربته الاسلام ، وريه

---

(١) النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين ، صفحة : ٥٣ .

الايمان ، امتزجت مواهبه العقلية ــ مع أوفر قسط من الذكاء ــ بالرأي الثاقب ، والشجاعة النادرة ، وهي الصفات المطلوبة للزعامة ، لقد كان شهامته وشغفه بالفتح لنشر الاسلام ، حيث قاد الحروب بنفسه بعطفه وحسن طالع ، يسبغان عليه المثالية .

وكان جوده وتواضعه واحتقاره لمظاهر الترف في الملبس والمأكل ، اكسبه محبة شعبه . وتقوي في نفوسهم عواطف التوقير والاحترام ، ويمدنها صرامته وعدالته[1] . وقد بلغ من اعتداله وتقشفه انه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ولحم الابل ، وشرابه من اللبن . وهذا الاعتدال والتقشف جعله يتمتع بصحة بديعة ، وعاش من العمر مائة عام : من ٤٠٠ هـ ، الى ٥٠٠ هـ .

كون ابن تاشفين جيشا تعداده زهاء ١٠٠ ألف مجاهد من قبائل صنهاجة وزناتة ومصامدة . وقسم هذا الجيش الى خمس فرق ، اذا دعت الظروف [illegible] تحت أعلامها وراياتها الخاصة لمقاتلة العدو [illegible] .

مد [illegible] ابن تاشفين دولة في شمال غرب افريقية ، من حدود [illegible] بموريتانيا حتى البحر المتوسط ، ومن الأطلسي غرباً ، الى ولاية قرطاجنة (تونس) شرقاً ، وفي سنة ١٠٧٠ م سقطت [illegible] طنجة التي كانت بيد الأدارسة ، عاونه في فتحها المعتمد بن عباد

---

(١) أسس ابن تاشفين نظاما قضائيا من أبدع ما عرفته الدول الاسلامية : راجع [illegible] ابن تاشفين : « النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين » ، « المغرب عبر [illegible] : ١ » ، « تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين » .

أمير أشبيلية نكاية بأعدائه ، فبعث السفن لمحاصرتها من البحر ، وحاصرها يوسف من البر حتى سقطت ، ولم ينقص يوسف سوى سبتة لفتح جميع بر العدوة المقابل لشاطىء الأندلس ، وسقطت سبتة سنة ١٠٨٤ م ــ بعد أن امتد سلطان المرابطين الى الشرق بافتتاح تونس ــ وهنا بدت شبه الجزيرة الاسبانية لابن تاشفين فتحاً يسير المنال ، لا سيما وقد دعاه أهلها المسلمون لنجدتهم ضد النصارى .



الاخطار المحدقة بالأنـدلس

✶ بعد سقوط طليطلة بيد الفونسو ، بدا له ان كل شيء ممكن . ولكن الاندلس وجدت في المرابطين المنقذ المخلص تحت عنوان الاخوة في الدين .

توحدت جهود الفونسو السادس ملك قشتالة ، الذي كان يحكم جليقية وجزءاً من البرتغال واشتوريش وليون وبسكونية ايضا ، وسانشو الأول ملك أراجون ونافارا ، والكونت برنجار ريموند حاكم برشلونة واورجل ، واتفقوا على سحق دولة الاسلام في الأندلس ، معتقدين جازمين بأن قدراتهم كافية لهذه المهمة ، لذا لم يخالجهم شك في أنهم سيخرجون المسلمين من الأندلس ، وقد حل اليوم المناسب لذلك ، وبدا كل شيء عندئذ ممكنا ، وبخاصة بعد أن سقطت طليطلة في أيديهم .

ونبذت الممالك النصرانية كل خصوماتها التي كانت تشل قواها فيما مضى ، وسار الجميع متحدين بجيش ضخم من جليقية وليون ، واحتلوا مدينة « قورية » من بني الأفطس ، ووصلوا الى نواحي اشبيلية ، فأحرقوا قراها وحقولها ، وسارت فرقة من الفرسان الى شذونة ، ثم اخترقت جزيرة طريف قاصية اسبانية قرب مضيق جبل طارق ، كما حاصر القشتاليون ، بمعاونة جند من

الأرجونيين والقطلونيين الذين وضعهم ألفونسو السادس تحت قيادته ، قلعة سرقسطة الحصينة التي يضع سقوطها منطقة الايبر « ابرة » في يد النصارى حتما ، ويجعل الشواطىء الاسبانية مما يلي البحر المتوسط عرضة لغاراتهم .

يقول المؤرخ يوسف أشباخ : وأثخن النصارى في ولاية سرقسطة كلها بالنار والسيف ، ولم يكن يردهم في الحرب أي اعتبار انساني مادام الأمر متعلقا بأعداء الدين — كما يعتقدون ! — ولكن الحصون الاسلامية قاومتهم مقاومة شديدة ، وتلقى المؤتمن بن هود وعداً بوصول المدد السريع من اخوانه المسلمين في جنوب الجزيرة ، بيد أن النصارى شددوا الضغط على سرقسطة يوماً بعد يوم ، وخشي المسلمون سقوط المعقل المنيع ، بعد أن أصبحت قواتهم وأهباتهم في حالة يرثى لها ، فقد كانت حتما دون قوى النصارى ، فتطلعوا الى عون من الخارج ، فاتجهت أبصارهم الى قوة المرابطين الناهضة في افريقية .

لقد أخطأ المعتمد بن عباد ، أعظم أمراء الأندلس في معاونة ألفونسو على محاصرة طليطلة ، بيد أنه تنبه الى خطئه ، فصار أوفر أمراء الأندلس نشاطاً لتحطيم قوى النصرانية ، فاجتمع مع الأمراء الآخرين في اشبيلية ، ثم في قرطبة ، واتفقوا على أن يرسلوا سفيراً الى يوسف بن تاشفين يلتمسون عونه وغوثه[1] . وعارض ذلك

(١) كما أرسل المعتمد بن عباد القاضي ابن الادهم ، وقال له : « أنت رسولي الى يوسف بن تاشفين » . ومما قاله ابن عباد لابن تاشفين : « ان كنت مؤثرا للجهاد فهذا أوانه ، فقد خرج الأذفونش الى البلاد ، فاسرع في العبور اليه » . راجع وفيات الاعيان ، ج : ٧ ، ص : ١١٦ .

عبد الله بن سكوت والي مالقة فقط ، فرموه بالخيانة ، وعهدوا الى المتوكل أمير بطليوس ـ وكان يومئذ أعلم أمراء الأندلس ـ أن يكتب رسالة الى يوسف بن تاشفين يلتمس منه أن يبادرهم بغوثه، قبل أن تقع الطامة الكبرى ، ووقع هذه الرسالة ثلاثة عشر من الأمراء المستقلين .

كما أمت مدينة مراكش وفود شعبية كبيرة[1] ، قدمت من الأندلس بزعامة بعض الفقهاء تطلب العون والغوث من أمير المرابطين ، الذي كانت سياسته ـ والوفود الشعبية تعلم ذلك ـ ترمي الى المحافظة على الوحدة الاسلامية ، وانقاذ ما يمكن انقاذه من الأراضي الاسلامية في اسبانية .

استشار ابن تاشفين مجلسه الاستشاري الذي كان يضم عددا من الفقهاء ، ووضّح لهم أن في الشاطىء الآخر لمضيق جبل طارق عدواً للاسلام يريد به سوءا ، واستنهض هممهم بدافع من دينهم الذي يذودون عنه ، أن يبادروا الى غوث المسلمين في الأندلس .

كانت التجارب قد صقلت زعيم المرابطين، وبلغ ذروة النضج، فقد كان يومئذ قد تجاوز السبعين من عمره ، وسأل كاتبه عبد الرحمن الأندلسي النصيحة فقال له :

كيف ستكون الحرب في جزيرة وعرة البسائط ، تعترضها جبال صعبة المسالك ؟

---

(١) الاستقصاء ، ج : ٢ ، ص : ٣٦ ، الحلل الموشية ، ص : ٣٠ ، الحلل السندسية : ص : ٤٧ .

ـــ وأية صداقة تربط المرابطين بملوك الطوائف ، والرجل الذي استدعاك بينه وبينك عتاب قديم ، ولا صداقة متصلة معه ؟

ـــ وأيـــة ضمانات تحملك على غوثهـــم ، وأيـــة مواثيق يقدمونها لك ؟

ـــ إذا انتصر العدو ، فقد يقطع عليك طريق العـــودة الى افريقية ! فاطلب من أمير اشبيلية اخـــلاء حصن الجزيرة لتمتلك موضعاً أميناً تشغله حامية مخلصة من المرابطين ، تبقى في كل وقت على اتصال دائم بافريقية .

ثم قال عبـــد الرحمن الأندلسي : « فاكتبوا اليـــه ـــ الى المعتمد ـــ فانه لا يمكنك الجواز إلا أن يعطيك الجزيرة الخضراء فتجعل فيها أثقالك وأجنادك، ويكون الجواز بيدك متى شئت[1] » .

وفي هذه الأثناء كان ملك قشتالة لا يزال يثخن في أراضي المسلمين[2] ؛ وفضلاً عما كانت تشعر به سرقسطة كل يوم مـــن ازدياد الضغط عليها ، وكونها تحارب جيرانها العامريين فقد كان بنو الأفطس إزاء خطر داهم ، ذلك أن ألفونسو كـــان ينذرهم بتخريب جميع مدائنهم ، إذا أبو الخضوع لسلطانه . ورد أمير بطليوس « المتوكل » على مطالب ألفونسو برسالة مطولة تفيض شجاعة وإباء ونبلا .

---

(١) الحلل الموشية ، ص : ٣٢ .

(٢) كانت خطة الفونسو الا يقاتل المسلمين في ارضه ، لانه ان غلب في ارضه ، ضاعت من تحت قدميه ، اما اذا قاتل المسلمين على أرضهم وانهزم ، فانه ينسحب الى ارضه للاستعداد ثانية ، دون أن يفقد من ارضه شيئا .

وبينما كان ابن تاشفين يهيىء العبور الى الأندلس ، دفع الأمراء المسلمين الجزية ، أو سلموا حصون الحدود الى ألفونسو وهادنوه ، حتى أن ابن عباد أمير اشبيلية دفع جزية ، وبعث إليه الفونسو رسالة تفيض كبرياء وصلفا ينعت فيها نفسه بأنه القيصر وسيد الشعبين ، وإمام الشريعتين • ورد ابن عباد على هذه الرسالة برسالة أشد كبرياء وعنفاً ، ولكنه اضطر إزاء تأخر ابن تاشفين في العبور والجواز الى اسبانية أن يؤدي جزية مشينة •

أرسل ألفونسو قرمط البرهانس ومعه يهودي خبير بالنقد لاستلام الجزية والتحقق من صحة النقد ، فلما حمل اليهما المال ، أبى اليهودي أن يتقبله دون فحص للتحقق من صحته ، ودار نقاش حاد حاول البرهانس بعده تسوية الخلاف ، فاقترح أن يقدم ابن عباد بدل المال المطلوب سفنا حربية بقيمة الجزية ، لأن اليهودي مأمور ألا يتسلم المال دون فحص وتحقيق ، فازداد غضب المعتمد بن عباد وصاح : « لا أستطيع أن أتحمل بعد طغيان النصارى الأوغاد » •

وفي ظاهر اشبيلية حيث كانت خيام وفد ألفونسو ، انسل الى خيمة اليهودي بعض العبيد الصقالبة فقتلوه ومن معه ، أما حياة السفير فقد حفظت نزولا عند القانون الدولي ، فغادر الى طليطلة وهو يتوعد بانتقام مولاه •

واتقاء للعاصفة التي أصبحت قريبة في الأفق ، وأمام مطامع ألفونسو وطغيانه ، استدعى المعتمد ابنه وولي عهده « الرشيد »

وأخبره أنه اعتزم ان يستدعي المرابطين إليه ، وقرر تسليم حصن الجزيرة ــ وهو من أراضيه ــ لابن تاشفين ، وقال لابنه : « أي بني ، والله لا يسمع عني أبدا أنني أعـدت الأندلس دار كفر ، ولا تركتها للنصارى ، فتقوم علي اللعنة في منابر الاسلام مثـل ما قامت على غيري[1] » .

وخوّفه بعض حاشيته من ابن تاشفين وقالوا : « الملك عقيم ، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد » . فأجابهم : « تالله انني لأوثر أن أرعى الجمال لسلطان مراكش على أن أغدو تابعا لملك النصارى وأن أؤدي له الجزية ، إن رعي الجمال خير من رعي الخنازير » ، أي أن يكون أسيراً لابن تاشفين يرعى الجمال في الصحراء ، خير من أن يكون أسيراً لألفونسو يرعى الخنازير في قشتالة !

أرسل المعتمد بن عباد سفارة الى يوسف بن تاشفين تحمل رسالة بخط يده ، وصف بها أمير المرابطين بأمير المؤمنين ، وشفّعه بلقب « ناصر الدين »[2] .

وصف ابن عباد في رسالته ما وصل اليه المسلمون في الأندلس

(١) ابن خلكان ، ج : ٢ ، ص : ٤٨٣ ، وقال ابن عباد ــ في المرجع المذكور نفسه ــ : « ان دهينا من مداخلة الاضداد لنا فاهون الامرين أمر الملثمين ، ولان يرعى أولادنا جمالهم أحب اليهم من أن يرعوا خنازير الفرنج » .

(٢) لم يدع ابن تاشفين الخلافة ، وكان يعترف بدعوة خليفة بغداد العباسي ، وذكر ابن خلدون أن الخليفة المستظهر بالله قد عينه أميرا على افريقية ، وأحيط هذا التعيين بجميع المراسم والتقاليد المرعية « ابن خلدون ج : ٦ ، ص ١٨٨ والحلل الموشية ص : ١٦ » ، والمرابطون لم ينزهوا انفسهم بلقب الخلافة لشعورهم بأنهـم ليسوا قرشيين ، ولكن الواقع أن سياستهم كانت ترمي الى المحافظة على الوحـــدة الاسلامية ، لا الى تحطيمها .

من جراء خلافهم ، وتفرق كلمتهم من حال يرثى لها ، وذكر كيف أنه في كل يوم ينقص من مُلْكِ المسلمين ، حيث ينقض ألفونسو على أراضي المسلمين « كالكلب المسعور » فيعيث فيها ، ويفتتح الحصون ، ويسبي السكان ، ويثخن في كل شيء دون أن يهبَّ أحد من أمراء الأندلس لغوثهم والدفاع عنهم ، وذلك على الرغم من أنهم يرون بأعينهم محنة ذويهم وجيرانهم •

ونسب المعتمد بن عباد هذا الخور والتخاذل الى اعتـدال جو الأندلس ، والى الشغف بالملاذ ، والى الحمَّامات ذات الماء المعطَّر ، والى المآكل الشهية ، والى العيش الناعم الرغد ، ورجا ابن عباد يوسف بن تاشفين ألا يتردد ، وهو سيد أمم عظيمة، وملك ضخم ، في أن يعبر الى اسبانية ، وأن يقاتل ذلك العدو الذي يطارد المؤمنين بكل ما يملك من غدر وخديعة ، قاصداً محو الاسـلام من اسبانية •

وكتب الوزير ابن عباد « أبو بكر » كتاباً في المعنى نفسه ، يؤكد فيه أن انهيار سلطان المسلمين في اسبانية لا يرجع إلا الى تفرقهم وتخاذلهم ، وأنه بينما يقوى النصارى بالاتحاد وينتزعون أراضي المسلمين بالعنف والخديعة ، وبالسيف والوعيد ، إذا بقوى المسلمين تنضب يوما بعد يوم •

ومما قاله الوزير : لقد غصت المساجد المتروكة بالقساوسة من أعداء الدين ، ونشرت الصلبان فوق المنائر التي كان يُتلى فيها الأذان من قبل ، وأخذت النواقيس تقرع من فوقها للقداس بعد أن كان يدعى للصلاة •

ويختتم الوزير كتابه بقوله : إن يوسف بن تاشفين قد غدا معقد الآمال ، وإنه يعتقد أن الله قد اصطفاه لانقاذ الاسلام[1] .

وأخيراً .. أرسل المعتمد ولده يزيد الراضي بالله والي الجزيرة ، ليسلّم هذا الثغر الهام الى المرابطين الذين عينهم ابن تاشفين لتسلّمها[2] .



(١) ابن خلكان ، ج : ٢ ، ص : ٤٨٢ .

(٢) ابن خلدون ، ج : ٦ ، ص : ١٨٦ ، ونفح الطيب ، ج : ١ ، ص : ٤٧ .

الجواز الأول

الزّلاقـــة

✱ ابن تاشفين : « اللهم ان كنت تعلم ان في جوازي هـذا خيرا وصلاحا للمسلمين فسهل علي جواز هذا البحر ، وان كان غير ذلك فصعبه حتى لا اجوزه » . فهدا البحر ، وجازت السفن سراعا في ابدع جو الى شاطىء الاندلس.

قبل يوسف بن تاشفين الدعوة لنجدة الاسلام في اسبانية ، ولما أنهى استعداداته ، أمر بعبور الجمال ، فعبر منها ما أغصّ الجزيرة ، وارتفع رغاؤها الى عنان السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملا قط ، ولا خيلهم ، فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال ومن رغائها ، وكان ليوسف في عبور الجمال رأي مصيب ، فكان يحدق بها عسكره ، ويحضرها للحرب[1] .

وفي ربيع الأول ٤٧٩ هـ / آب « أغسطس » سنة ١٠٨٦ م، عبر يوسف بن تاشفين بجيشه من سبتة ، وما كادت السفن تنشر قلاعها ، حتى صعد الى مقدمة سفينته ورفع يديه نحو السماء ودعا الله مخلصاً : « اللهم ان كنت تعلم أن في جوازي هذا خيراً وصلاحاً

(١) وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ، ج : ٧ ، ص : ١١٦ ، وراجع : الايام الحاسمة في الحروب الصليبية ، بسام العسلي ، صفحة : ٥١ .

للمسلمين فسهل علي جواز هذا البحر ، وان كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه » . فهدأ البحر ، وجازت السفن سراعاً في أبدع جو الى شاطىء الأندلس[1] . ولما نزل أرض الأندلس سجد لله شكراً .

تسلم ابن تاشفين قلعة الجزيرة الخضراء باحتفال حضره القضاة والفرسان ، وحضره المعتمد أمير اشبيلية ، وتعتبر الجزيرة مفتاح اسبانية ، فأمر ابن تاشفين بتحصينها أتم تحصين ، ورتب بها حامية مختارة لتسهر عليها ، وشحنها بمقادير عظيمة من الأقوات والذخائر لكي تغدو ملاذاً أميناً يلتجىء إليه إذا مُنيت الحملة بالفشل . ثم غادرها في جيشه الى اشبيلية .

وتعهد كل أمير من أمراء الأندلس بأن يجمع كل مافي وسعه من الجند والمؤن ، وأن يسير الى مكان محدد في وقت معين . وعني أمير اشبيلية عناية خاصة باعداد مقادير عظيمة من المؤن تكفي لتزويد جيش ضخم ، واستطاع بذلك أن يسبق زملاءه الأمراء في اغتنام عطف ابن تاشفين . ولبث أمير المرابطين في اشبيلية ثمانية أيام فقط يرتب أثناءها قواته ، وينتظر مقدم الأمراء الأندلسيين في قواتهم .

وكان في هذه الأيام صائم النهار، وقائم الليل في تهجد وتلاوة لآيات كتاب الله الكريم ، وأكثر من الصدقات وأعمال البر . فتملك

---

(١) وكما ورد : « سهل الله المركب ، وقرب المطلب » .

نفوس الناس أكثر ، وكسب قلوب جنده بالنصفة وايثار الحق ، وانشاء العدل .

غادر يوسف بن تاشفين بجيشه اشبيلية مخترقاً أراضي أمير بطليوس الذي أمر بجمع الجند والخيل والدواب ، ورتب ابن تاشفين قواته على النظام التالي :

ـ الفرسان في طليعة المرابطين ، وعددهم عشرة آلاف ، يقودهم أبو سليمان داود بن عائشة .

ـ قوات الأندلس تليهم ، ويقودها المعتمد أمير اشبيلية ، وكانت قوات الأندلس تؤلف وحدها جيشاً خاصاً منفصلا عن جيش المرابطين .

ـ وسار بعدهم بيوم واحد ، جيش المرابطين يقوده يوسف بن تاشفين ، وكان ينزل في المساء في المحلة التي يغادرها أمير اشبيلية في الصباح ، ووصلت الجيوش قرب بطليوس ، ولبث هنالك ثلاثة أيام .

* * *

في تلك الأثناء كان نبأ مقدم المرابطين الى اسبانية قد وصل على جناح السرعة الى معسكر النصارى أمام أسوار سرقسطة ، وكان ألفونسو السادس قد ركز معظم قواته كي يعجل بسقوطها، ولم يحمله على رفع الحصار عنها سوى الخوف على طليطلة وعلى

أراضيه الجنوبية ، فعقد مجلساً من كبراء مملكته ، ثم حشد قواته ، وتأهب بكل طاقاته ليخوض المعركة الحاسمة مع فاتحي افريقية ، واذا كانت المحنة تملي بالاتحاد ، فقد تحالف مع سانشو راميرز Sancho Ramires ملك أراجون وصاحب بنبلونة ، والكونت برنجار ريموند ، وكان الأول يشتغل يومئذ بمحاصرة طرطوشة ، وكان الثاني يتأهب لغزو بلنسية ، فعدل كل منهما عن مشروعه ، وانضما بقواتهما الى ألفونسو ، وكان قد حشد قوات عظيمة من جليقية وليون وبسكونية واشتوريش وقشتالة ، ووفدت في الوقت نفسه لنجدة النصارى الاسبان سريات من الفرسان من ولايات فرنسة الجنوبية ، ومن الأراضي الاسلامية التي احتلت أخيرا مؤملة أن تجني بمقاتلة أعداء الدين مغانم عظيمة، واتخذ القتال صفة الحروب الصليبية ، فقد عمل البابوات دوراً كبيراً في توجيهها والحث عليها ، وأنذر ألفونسو ملوك وأمراء النصرانية في أوربة ، بأنهم إن لم يتداركوه بالعون ، فانه سوف يضطر الى الصلح مع المسلمين ، وسوف يتركهم أحراراً في عبور جبال البرانس ، فجاءته الامدادات من كل صوب .

ولأهمية المعركة فقد بالغت الروايات الأوربية في عدد الجند المسلمين ، فقالت إن المسلمين كانوا بضع مئات من الألوف « كان لا يحصى عديده ، كجيش من الجراد المنتشر » ، والحقيقة أن المسلمين كانوا ثمانية وأربعين ألفا ، نصفهم من الأندلسيين ، ونصفهم من المرابطين .

وتذكر بعض الروايات أن جيش ألفونسو كان مائة ألف من

المشاة وثمانين ألفا من الفرسان منهم أربعون الفا من ذوي العدد الثقيلة ، والباقون من ذوي العدد الخفيفة . والمستخلص من الروايات الاسلامية والنصرانية المختلفة أن عدد المسلمين كان أقل بكثير من عدد النصارى .

وعسكر الجيشان المتحاربان على مقربة من بطليوس . في سهل تتخلله الأحراش، تسميه الرواية العربية الزّلاقة . أو السّهلة. وتسميه الرواية النصرانية بسكرالياس : Sacrelias ، وفرّق بين الجيشين نهر صغير تسميه الرواية العربية نهر حجير أو بطليوس.

وضرب ابن تاشفين معسكره وراء ربوة عالية ، منفصلاً عن مكان الأندلسيين ، وعسكر الأندلسيون أمام النصارى الذين كانت جموع فرسانهم لا تدرك نهايتها الأبصار فكادت تبعث في قلوب الأمراء الأندلسيين اليأس من النجاح والظفر .

وكان الموقف لا يحتمل التأجيل ، فما تحمل هذه الجموع الهائلة من المؤن كان قليلاً مما يهدد الجيشين بالجوع إذا طال مكثهما وانتظارهما في تلك البقعة .

لبث الجيشان كل منهما تجاه الآخر لا يفصلهما سوى النهر ثلاثة أيام ، والرسل تتجاوب بينهما . فأرسل ابن تاشفين الى ألفونسو كتاباً يخيره فيه بين ثلاث : إما أن يعتنق الاسلام ، أو يؤدي الجزية للمسلمين ، فاذا أبى الاثنتين ، فعليه أن يبادر بالأهبة الى القتال . وهذه الرسالة تدل على سلوك مسلم ملتزم ، وتذكرنا بالفاتحين السابقين من المسلمين ، خالد وسعد وأبي عبيدة وغيرهم.

ومما قاله ابن تاشفين : « بلغنايا أذفونش ــ ألفونسو ــ أنك دعوت للاجتماع بك ، وتمنيت أن يكون لك فُلْك تعبر البحر عليها إلينا ، فقد أجزناه إليك ، وجمع الله في هذه العرَصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ، « وما دعاء الكافرين إلا في ضلال »[1] .

ولما فهم ألفونسو كتاب ابن تاشفين ، ألقاه أرضاً مغضباً ، وقال للرسول : اذهب فقل لمولاك اننا سنلتقي في ساحة الحرب ، ورد بلهجة ملؤها الغضب والغيظ والوعيد . فأمر ابن تاشفين كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجيبه ، فكتب وأجاد ، فلما قرأه على ابن تاشفين ، قال : هذا كتاب طويل ، أحضر كتاب الأذفونش واكتب في ظهره : « الذي سيكون ستراه » ، وأرسله إليه ، فلما وقف عليه ألفونسو ارتاع له ، وعلم أنه بُلِيَ برجل لا طاقة له به[2] .

وكتب ألفونسو الى أمير المرابطين قبل القتال : إن غداً يوم الجمعة ، وهو يوم المسلمين ، ولست أراه يصلح للقتال ، ويوم

---

(١) الحلل الموشية ص : ٣٥ ، ونفح الطيب ، ج : ٢ ، ص : ٥٢٧ . وابن خلكان ، ج : ٢ ، ص : ٤٨٣ . وهذا رد على رسالة كان أرسلها الفونسو لابن تاشفين قبل الجواز الى الاندلس جاء فيه : « ان كنت لا تستطيع الجواز فابعث الي ما عندك من المراكب أجز اليك ، واناظرك في أحب البقاع عندك ، فان غلبتني فتلك غنيمة جلبت اليك ، ونعمة مثلت بين يديك ، وان غلبتك كانت لي اليد واستكملت الامارة » .
ــ والآية في نهاية الرسالة من سورة غافر ، الآية الكريمة : ٥٠ .

(٢) الحلل الموشية ، ص : ٣٥ و ٣٨ ، نفح الطيب ، ج : ٢ ، ص : ٥١٧ ، ابن الاثير « الكامل » ج : ١٠ ، ص : ٥٢ .

الأحد يوم النصارى ، وعلى ذلك فاني اقترح اللقاء يوم الاثنين ، ففيه يستطيع كل منـا أن يجاهد بكل قواه لاحراز النصر دون الاخلال بيوم ، فوقع هذا الاقتراح من يوسف موقع الرضى ، وتحدد اللقاء يوم الاثنين ١٥ رجب سنة ٤٧٩ هـ ، ٢٦ تشرين الاول « اكتوبر » سنة ١٠٨٦ م •

ولكن ألفونسو ــ كما يقول يوسف أشباخ ــ كان يرى وفقاً لمبدأ ذميم ، أنه يحق له أن يلجأ في الحرب الى كل خدعة ، وأن ينكث بالعهد المقطوع ، فيقاتل قبل اليوم المضروب ليفاجىء العدو ، وليتمكن من هزيمته • ومن ثم فقد اعتزم أن يلجأ الى مثل هـذه الخديعة ، وأن يختـار للقتـال يوم الجمعة ، وهو يوم المسلمين[1] •

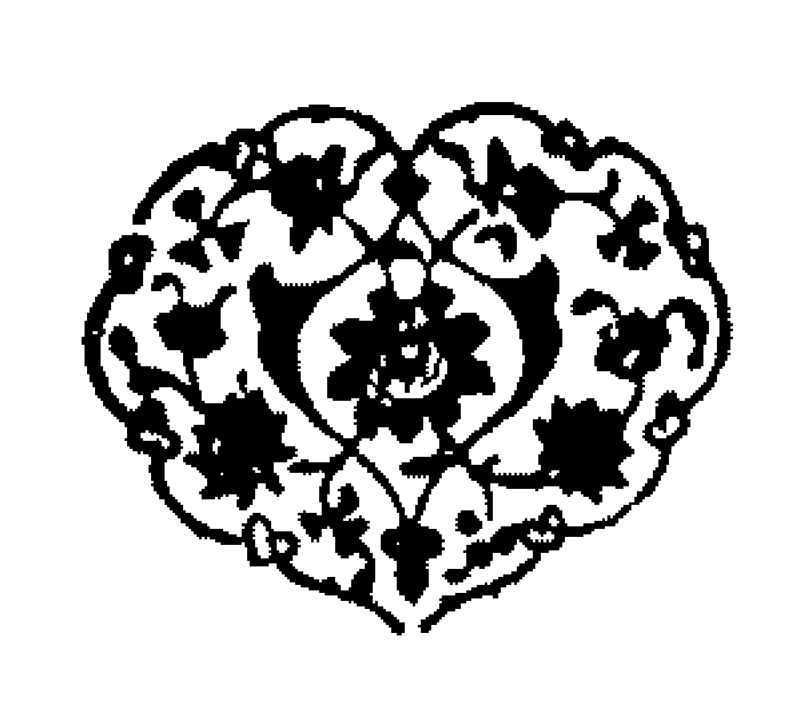
بيد أن المسلمين على الرغم من ارجاء موعد القتال الى ما بعد أيام ، لم يدخروا وسعاً في التحوط ضد أية مفاجأة ، وارتابوا من نيات ملك قشتالة ، لاسيما وقد عرفه المعتمد أمير اشبيلية من قبل خدعة في الحرب ، وعانى من جرائها غير مرة ، فبعث عيونه بالليل ليرقبوا كل حركة في معسكر النصارى ، ووقف هؤلاء على أهبة النصارى للقتال ، فارتدوا مسرعين الى المعتمد يخبرونه أنهم سمعوا ضوضاء الجيوش ، واضطراب الأسلحة ، متحققين من تحـرك

(١) رأى الفونسو قبل المعركة ، أنه راكب فيلا ، فلم يعرف لرؤياه تأويلا ، ففسرها له أحد المسلمين بقوله : ان جيشك سوف يهلك كما هلك أصحاب الفيل ، فقال الفونسو لمن عبر له الرؤيا : « لاقاتلن بهذا الجيش إله محمد » • وهذا منتهى الغرور والتطاول •

ألفونسو ، وقالوا : « استرقنا السمع ، فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه : ابن عباد مُسَعِّرُ هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون ـ وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الحروب ـ فهم غير عارفين بهذه البلاد ، وإنما قادهم ابن عباد ، فاقصدوه واهجموا عليه واصبروا ، فان انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده ، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة » .

عندها بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر بن القصيرة الى ابن تاشفين يعرِّفه غَدْر ألفونسو ويستحثه نصرته ، فقال ابن تاشفين له : « إني سأقرب منه ان شاء الله تعالى » ، وأمر يوسف بعض قواده أن يمضي بكتيبة رسم لها خطتها ، وهي دخول محلة النصارى فتضرمها نارا ، مادام ألفونسو مشتغلا مع ابن عباد .

وهكذا .. أعد ابن تاشفين جنده للنزال قبل أن يتحرك جند ألفونسو . وراقب كل حركاتهم ، وتأهب للقاء في أي وقت تحسباً من غدر ألفونسو .



المعركة

★ يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ ٠ ٢٣ تشرين الاول « اكتوبر » ١٠٨٦ م ٠ يوم نصر الزلاقة ، الذي اهتزت له نفوس المسلمين في كل بقاع العالم الاسلامي ٠

★ خطة ابن تاشفين :

جعل ابن تاشفين المعتمد بن عباد في قلب المقدّمة ، والمتوكّلَ بن الأفطس في الميمنة ، وأهل شرق الأندلس في الميسرة، وباقي الأندلسيين في السّاقة ٠ بينما يتوزع المرابطون كمائن ستفاجيء العدو بعد اصطدامه بجيش الأندلس ، وستمنع الأندلسيين من التراجع أو الفرار ٠

★ خطة ألفونسو :

وتقسيمات جيش النصارى لم تكن أقل إحكاماً من الجيش الاسلامي ٠ فقد قَسَّم ألفونسو جيشه الى قسمين اثنين ، الأول بقيادة الكونت جارسيان والكونت رودريك ، وخُصِّص لمهاجمة المعتمد بن عباد ٠ والثاني جناحا ألفونسو بقيادة سانشو راميريز ملك أراجون ، والكونت ريموند ٠ بينما قاد القلب ألفونسو السادس ذاته ٠

★ **نظرة الى خطة ابن تاشفين :**

١ً ـ أهم الخطط التي أثبتت حنكة المرابطين الحربيـة ، وأظهرت روعـة تبصّرهم بالأمور ، وحسن تحسبهم لعـواقب الأمور ، اتخاذ الجزيرة الخضراء خطاً للرجعة ، ومركزاً لتجمـع جيوش ابن تاشفين في الأندلس قبل خوض الزّلاقة .

٢ً ـ احتفظ ابن تاشفين بقوة احتياطيـة تحتوي اشجع الجنود وأبرعهم تنقض في الوقت المناسب على الأعداء ، بعد أن يكون الاعياء قد بلغ من العدو مبلغه ، وهذه القوة الاحتياطيـة ستضمن التغلب على العدو « بالمفاجأة » بجيش احتياطي اتبع نظام الكمين الذي ساعدت عليه طبيعة أرض اسبانية ، ووعورتها التي تناسب هذا النوع من القتال .

فخطة الزلاقة خطة مبتكرة رائعة ، تؤمّن عنصر « المفاجأة » في المعركة بقوات احتياطية مرتاحة معدّةٍ للهجوم على معسكر العدو ذاته . والضغط عليه بشدة ، لتثخن فيه من مؤخرة صفوفه، مع جو رهيب من دقّ الطبول التي تُضْرَب بشدة من حول جيش المرابطين ، فتشق بدويها الفضاء ، لتبث الفزع في صفوف جيش ألفونسو ، الذي لم يسبق له سماع مثل هذا الضجيج الذي تهتز له الأرض .

٣ً ـ قاتل جيش الاسلام بنظام متماسك أربك النصارى ، فقد قاتل بنظام الصفوف المتراصة المتناسقة الثابتة ، الذي لم يعهده

الفرسان النصارى من قبل[1] ، إذ كانوا معتادين على القتال الفردي ، فوجدوا أنفسهم على الرغم من تفوقهم في السلاح والعدد ، عاجزين عن مناهضة هذه الصفوف المرابطة المتعطشة للشهادة •

* * *

تهيّأ الطرفان للمعركة ، وتنبّه المسلمون لغدر الفونسو ، ووقف الرهبان والقسس في صفوف جيش النصارى يحثونهم على القتال ، ووقف العلماء والفقهاء في صفوف المسلمين يحثون المجاهدين على الصمود والاستشهاد •

سيّر ألفونسو القسم الأول من جنده بقيادة جارسيان ورودريك ، لينقض بمنتهى العنف على معسكر الأندلسيين الذي يقوده المعتمد ، وأمل الفونسو أن يبعث بذلك الهجوم المفاجىء الاضطراب والفزع في صفوف المسلمين ، ولكن شد ما دهش النصارى إذ رأوا أمامهم قبل أن يصلوا الى المعسكر الأندلسي جيشاً من المرابطين قوامه عشرة آلاف فارس بقيادة داود بن عائشة أشجع قادة ابن تاشفين وأقدرهم •

---

(١) عرف المسلمون هذا النوع من القتال في معركة بدر الكبرى ، حيث رتب النبي ﷺ المجاهدين (بنظام الصف) بدل الكر والفر الذي كان متبعا عند العرب ، وفي هذا نزلت الآية الكريمة : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » • وكما استطلع النبي ﷺ عدد جيش المشركين قبيل بدر ، ركز ابن تاشفين على « الاستطلاع » بمساعدة ابن عباد ، وكان ذلك من عوامل تحقيق النصر ، فقد تدارك غدر الفونسو المبيت •

ولم يستطع ابن عائشة أن يصمد للسيل الزاحف من الأعداء، ولعنف الهجوم[1] ، وذلك على الرغم من اعتماده على قوة كبيرة من رماة السهام والنبال . ولكنه استطاع بالفعل بوقفته الباسلة المشرفة أن يحطم عنف هجمة النصارى ، وأن يرغمهم بذلك على الارتداد الى خط دفاعهم الثاني ، وخسر المرابطون في رد هذا السيل الجارف خسارة بشرية كبيرة .

لقد هال ابن عباد منظر فرسان النصارى في دروعهم الحديدية، « وكأنهم كتل من السحب القاتمة » ، وفرّ بعض الأمراء الأندلسيين بعد أن ايقنوا قبل خوض المعركة بالهزيمة ، ولاذوا بفرار مشين ، بيد أن فرسان اشبيلية يقودهم أميرهم الشجاع المعتمد بن عباد ، استطاعوا أن ينقذوا شرف مسلمي الأندلس ، وقاتل أولئك الفرسان ، وقد أحاطت بهم من كل صوب آلاف مؤلفة من فرسان العدو ، قتال الأسود الضواري ، يؤازرهم الفرسان المرابطون بقيادة داود بن عائشة ، وهم الذين قاتلوا في البداية بمنتهى البسالة والجلد ، فاستطاعوا أن يصمدوا لهذه المعركة الهائلة الى حين .

وأيقن ألفونسو بالنصر عندما رأى مقاومة المعتمد تضعف تباعاً أمام سيل جنده الجارف ، ورأى حركة الفرار تتسع بين مسلمي الأندلس شيئاً فشيئاً ، ولكن جيش المرابطين بقيادة أبي يعقوب يوسف بن تاشفين كان يرابط وراء أكمة عالية ،

---

(١) لقد كانت الجيوش النصرانية خشنة مدربة ، متحمسة لعقيدتها تحمسا شديدا .

تحجبه عن أنظار النصارى ، ولم يكن قد اشترك في المعركة بعد ، ولم يشترك فيها مع الجيش الأندلسي من الافريقيين سوى الآلاف العشرة مــن الفرسان المرابطين بقيــادة داود بن عائشة ، ولكن ألفونسو ظن لسوء طالعه خطأ أنه قد خاض المعركة مع قوى الأعداء جميعها كاملة .

وفي هذه اللحظة الحاسمة الحرجة ، وثب الجيش المرابطي المظفر الى الميدان في الوقت الذي أخذت فيه قوى النصارى في الهبوط ، وأرسل ابن تاشفين عدة فرق لغوث المعتمد ، وبادر في الوقت نفسه بالزحف في حرسه الضخم من اللمتونيين والمرابطين ــ وقد كان عــاد ظفره في جميع حروبه الافريقية ــ واستطاع أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بحركة بارعة أن يباغت معســكر ألفونسو ، وأن يحدق به . وكان ألفونسو يدفع جنده في غمرة المعركة دائما الى الأمام . حتى استطاع أن يوقع الهزيمة بالمعتمد، وأن يلجئه الى التراجع على الرغم من قدوم النجدة المرابطيــة لغوثــه .

وبينما ألفونسو مشتغل بمطاردة ابن عباد ، إذ به يقع فجأة على جموع فارة من النصارى ، وقد كان أولئك حرس معسكره الخاص الذين انقض عليهم ابن تاشفين بجيشه الزاخر ايمانا وتطلعا للظفر أو الشهادة ، واضطرهم الى الفرار .

وعلم النصارى مع الروع أن يوسف قد احتوى المعسكر النصراني ، وفتك بمعظم حراسه ، وغنم كل مافيه ، وأحرق الخيام

وغث المتاع ، فتعالت النار في محلة القشتاليين ، وما كاد ألفونسو يقف على هذا النبأ حتى ترك مطاردة الأندلسيين ، وارتد من فوره لينقذ محلته من الهلاك ، وليسترد معسكره الذي انتزعه يوسف ، وليوقع الهزيمة هنالك بأعدائه ، ولكن يوسف لم ينتظر حتى يهاجمه ألفونسو ، بل انقض بجموعه المظفرة على النصارى كالسيل يحمل ما يصادفه ، ومع أن النصارى كانت قد خبت قواهم من طول القتال ، فانهم قاتلوا قلب الجيش الافريقي المرابطي بجلد . فأخذ ابو يعقوب يوسف يثب بجواده السريع بين جنده من صف الى آخر وهو يذكي حماستهم للنصر أو الشهادة ، لقد كان على فرس يمر في ساحات المسلمين ، يحرضهم ويقوي نفوسهم على الجهاد والصبر ويقول : يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين . ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة . فقاتل المسلمون قتال من يطلب الشهادة ويتمنى الموت[1] .

ولم يكن تشجيع يوسف لجنده بقدوته وأفعاله أقل من كلماته ، فقد كان في مقدمة الصفوف يخوض غمار المعركة في ذروة لظاها ، وقد قتلت تحته أفراس ثلاث ، وكأنما كانت تحميه من الطعان يد العناية الالهية ، وقاتل المرابطون أسوة بأميرهم وهم يضطرمون شوقاً الى الشهادة ، وجدوا في طلب الموت في أعمق صفوف العدو حتى يفوزوا بنعيم الخلد . ولا ينكر أيضا قتال النصارى في هذا اليوم الحاسم باخلاص لدينهم .

---

(١) روض القرطاس ، ص : ٩٥ .

ودام القتال المرير بضع ساعات ، وسقطت ألوف مؤلفة وقد حصدتهم سيوف المرابطين حصاد الهشيم ، ليسقطوا فوق دم الذين قتلوهم في بدء المعركة • وبدت أخيراً طلائع الموقعة الحاسمة قبل دخول الظلام ، فقد لاحظ ابن عباد وابن عائشة عند ارتدادهما في اتجاه بطليوس أن ألفونسو قد كف عن المطاردة فجأة ، وسرعان ما علما كيف مال النصر الى جانب أمير المؤمنين أبي يعقوب ، فجمعا قواتهما وهرولا الى الميدان مرة أخرى ، وهكذا أصبح ألفونسو وجيشه بين « مطرقة ابن عباد وسندان ابن تاشفين »[1] • وحقّت عليهم الهزيمة ولم يبق أمامهم إلا أن يقاتلوا قتال اليأس•

وكانت الضربة الأخيرة ، أن دفع أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بحرسه وقوامه أربعة آلاف الى قلب المعركة ، واستطاع أحدهم أن يصل الى ملك قشتالة « ألفونسو » ، وأن يطعنه بخنجر في فخذه طعنة نافذة . وكانت الشمس قد أشرفت على المغيب ، وأدرك ألفونسو وقادته وفرسانه أنهم يواجهون الموت ، بعد أن أفل طالعهم كل الأفول . ولما جنّ الليل ، وبسط الظلام حجابه على سهل الزلاقة ، الذي غُطّي بالجثث والدمار بادر ألفونسو في قلة من صحبه الى التراجع والاعتصام بتل قريب ، ولما حل الليل انحدر ومن معه تحت جنح الظلام الى مدينة قورية •

ولم ينج من جيش القشتاليين مع ملكهم سوى أربعمائة أو

---

(١) الايام الحاسمة في الحروب الصليبية ، صفحة : ٥٨ •

خمسمائة فارس معظمهم جرحى[1] ، ولم ينقذ البقية الباقية من جيش ألفونسو سوى دخول الظلام ، حيث أمر يوسف بوقف المطاردة . ولم يصل الى طليطلة فيما بعد من الفرسان الذين كانوا مع ألفونسو سوى مائة فارس فقط .

* * *

كل ما سبق كان في ١٢ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٣ تشرين الأول « اكتوبر » ١٠٨٦ م . وعرفت هذه المعركة المزدوجة عند المسلمين بالزلاقة ، وهو اسم السهل الذي وقعت فيه ، وتسمي الرواية الأوربية النصرانية الموقعة الأولى التي نشبت ضد أمير اشبيلية وداود بن عائشة بموقعة (رودا) ، والثانية وهي الموقعة التي نشبت ضد يوسف بموقعة (سكرالياس : Sacrelies) . ويبدو من الايجاز الذي يلتزمه الرواة النصارى ازاء هذا النصر الحاسم العظيم للاسلام على النصرانية في شبه الجزيرة الايبرية مرة أخرى، بعد نصر وادي لكة على يد ابن زياد ، كيف يتناول المنهزمون سير هزائمهم في غضاضة واحجام . وكما يقول المؤرخ الالماني اشباخ: وهذا الايجاز والغموض اللذان أحاطا بالرواية النصرانية ، هما السبب في كونها قد جعلت من الموقعة الواحدة موقعتين مختلفتين تبعا للزمان والمكان .

(١) بالغت الروايات الاسلامية في خسائر الفونسو ، فقالت : ١٨٠ الفا . وقتل من المسلمين ٣٠٠٠ شهيد فقط ، والواضح ان خسارة المسلمين كانت اقل من خسارة النصارى ، ولكنها كانت كبيرة ، ونجا من الجيش النصراني من ٣٠٠ ـ ٥٠٠ فارس مع ألفونسو فقط ، ومات فيما بعد قسم كبير منهم .

ومضى المسلمون ليلهم في ساحة القتال يرددون أناشيد النصر شكراً لله عز وجل ، فلما بزغ الفجر أدوا صلاة الصبح في سهل الزلاقة . ثم حشدوا جموع الأسرى ، وجمعوا الاسلاب والغنائم ، واعد يوسف من نصره الرائع منظراً مدهشاً لجيشه ، ذلك أنه أمر برؤوس القتلى فصفت في سهل الزلاقة على شكل هرم ، ثم أمر فأذن للصلاة من فوق أحدها ، وكان عدد الرؤوس لا يقل عن عشرين الف رأس .

وذاع خبر هذه الموقعة الكبرى في جميع الأقطار ، وأمر يوسف فكتب عنها بلاغ أرسل الى افريقية ، ليقرأ في المساجد في جميع مدن المرابطين . فعقدت صلوات الشكر على جانبي مضيق جبل طارق . في افريقية وفي الأندلس ، ابتهاجاً بانقاذ الاسلام في اسبانيه .

وكتب ابن عباد — الذي كان فارساً مغواراً في الزلاقة — الى ابنه « الرشيد » في اشبيلية يبشره بانتصار المسلمين ، وبما أصاب العدو وجنده من هزيمة ساحقة ، وحملت البشرى السارة حمامة زاجلة كان قد حملها معه للقيام بمخابرة سريعة ، فطارت من بطليوس الى اشبيلية في بضع دقائق ، وأمر الأمير الرشيد فقرئت البشرى على الناس في المسجد الجامع ، وعقدت صلوات الشكر ، واقيمت حفلات الابتهاج ، واقترنت باضاءة المدينة وفقاً لتقاليد العصر . وهكذا احتفل بالنصر في اشبيلية وهي على مسيرة أيام من الزلاقة . في ليلة النصر ، قبل أن يغادر جيش المرابطين والأندلسيين ساحة القتال .

نتائج الزلاقة

✶ الزلاقة : انتصار حققه المرابطون بجدارة وسجل في تاريخ الاسلام فخرا لا يقدر بثمن .

انتهت الزلاقة بنصر رائع رد سيل النصرانية الجارف عن الأندلس المسلمة ، بعد أن كاد ينذرها بالمحو والفناء العاجل ، فغنم الاسلام حياة جديدة في اسبانية ، امتدت أربعة قرون أخرى ، وهيأت الأندلس لتكون ولاية مغربية تابعة للمرابطين ، ثم للموحدين ، لمدة قاربت مائة وخمسين عاما ، بقيت الأندلس خلالها تتابع نشاطها المنتج ، وتقدمها الحضاري الباهر .

انجلت الزلاقة عن يوم مشهود من أيام الاسلام ، انها تعني أكثر من هزيمة لملك قشتالة ، وأكثر من ظفر للمرابطين ، لقد توجَّست النصرانية منها ، واستشفت بعدها تجدد الخطر الداهم الذي كان غير مرة ينذر بانتشار الاسلام فيما وراء جبال البرانس .

وكما فعل طارق بن زياد ، الذي لم يترك للنصارى وقتاً للنهوض من عثرتهم بعد معركة وادي لكة ، كان من المفروض استثمار النصر لسحق مملكة قشتالة بوقت قصير ، فان المسلمين لم يتابعوا مطاردة أعدائهم ، مما جعل ألفونسو السادس يجد في حشد

جيش جديد . ساعده في ذلك ظرف مناسب جداً ، وهو أن يوسف بن تاشفين تلقى عقب فوزه نبأ وفاة ولده أبي بكر ، وهو الذي خلفه على مراكش أثناء غيابه فعجل ابن تاشفين — قبل كل شيء — بالعودة الى افريقية ، وكان في نيته العودة الى الأندلس بعد تدبير شؤون مراكش ، ليتابع فيها الحرب بنفسه ، فولى أثناء غيابه قيادة الجيش المرابطي لقائده الشجاع سير بن أبي بكر ، فزحف مع أمير بطليوس الى أواسط البرتغال ، مما يلي نهر التاجة، وزحف المعتمد بن عباد أمير اشبيلية في قوة كبيرة من الفرسان على ولاية طليطلة ، وفتح عدة حصون منها : أقليش ، ولكنه تهور عندما توغل في أرض مرسيه ، فتراجع أمام فرسان الكمبيادور ، الذي قاد فرسانا نصارى عملوا لحسابهم الخاص ، أما الفرسان النصارى فقد أرسل اليهم الفونسو قوة من القشتاليين ، وأخذوا يهددون المدن الاسلامية . خصوصا وقد وجدوا في حصن لبيط : Aledo . معقلا أمنا ينطلقون منه فينقضون كالبرق الخاطف على الأراضي المجاورة . ثم يعودون الى مخبئهم حصن لبيط .

أما أبو يعقوب يوسف بن تاشفين فقد وصل البحر ، وعبر المضيق الى المغرب .

لقد قضت الزلاقة على التمزق بين ملوك الطوائف ، ورفعت الروح المعنوية للمجاهدين في سبيل الله ، وأعادت الثقة الى المسلمين جميعا .



الجواز الثاني

★ « إلا تنصروه فقــد نصره
الله » .

« التوبة : ٤٠ » .

استطاع ألفونسو بسرعة مدهشة أن يحشد جيشاً جديداً ، جاءت امداداته من فرنسة ونورمانديا ــ ألمانية ــ ، فروح الصليبية دفعت أفواج المتطوعين النصارى الى اسبانية لشــد أزرها في معركتها ضد الاسلام .

جمع ألفونسو السادس جيشه ، وآزره فرسان حصن لبيط ، فعاث في ولاية مرسية سلباً ونهباً وحرقاً ، لم تجتمع كلمة الأمراء الأندلسيين على روابط الاتحاد القوية ، بل كانت تسودهم عواطف الأثرة والحسد ، فسار المعتمد الى مراكش ليقابل أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، وبسط له ما يسود الأمراء المسلمين من عوامل التفرق ، وطلب منه أن يوكل اليه قيادة جيش المرابطين في الأندلس، وتدبير شؤون الأندلس كلها .

أدرك يوسف خطورة الموقف ، فعبر في ربيع الأول ســنة ٤٨١هـ/حزيران(يونية) سنة ١٠٨٨م، الى الجزيرة الخضراء بجيش ضخم ، ثم سار الى مرسية حيث كان المسلمون يومئذ في أشــد

المارق . من جراء غارات النصارى ، فأمر يوسف جميع أمراء الأندلس ان يوافوه بقواتهم الى اقليم مرسية ، عند حصن لبيط ، وحاصر هذا الحصن المنيع ، الذي كان فيه ألف فارس واثنا عشر الفا من المشاة .

وعند أسوار الحصن قرر ابن تاشفين والمعتمد رفع الحصار لعدم جدواه ، بسبب قلة أدوات وأسلحة الحصار . وأرادا ملاحقة الفونسو السادس حتى لا يتمكن من المضي في أهبته . ولما أخطر المعتمد امراء الأندلس بهذا القرار ، اعترض عليه أمراء مرسية ، وثار احدهم وهو عبد العزيز بن رشيق وهو من الولاة التابعين لاشبيلية . حينما رماه المعتمد بأنه متحالف سراً مع ألفونسو ، وشهر على المعتمد سيفه ليبطش به ، فأمر يوسف بن تاشفين بالقبض عليه . وكان لهذه الحادثة أكبر الأثر في سير الحوادث ، ذلك أن جند مرسية ماكادوا يقفون على ماوقع لأميرهم حتى اجتمعوا ساخطين . وساروا بقيادة زعمائهم الى حدود مرسية واعتصموا بشعب الجبال . وقطعوا المؤن عن الجيش المرابطي ، كما غادر الميدان بعض الولاة الآخرين بسبب غطرسة المعتمد .

وفي هذه الأثناء أمر ألفونسو بتقويض أسوار حصن لبيط واخلائه ، لأن هذا الموقع الهام ، لا يمكن الدفاع عنه دون حامية كبيرة .

وعاد ابو يعقوب يوسف بن تاشفين الى المغرب ، وترك في الأندلس حامية ، كما فعل بعد معركة الزلاقة .

* * *

الجزء الثالث

الأندلس تحت سلطان المرابطين

★ من عالج الباب العصي فلم يلن
لـيـديه حطم جــــانب المصراع .

★ أنقذ ابن تاشفين الاندلس من انهيار محقق ، وضبطها بعزم وحزم ، بعد فوضى وضياع .

حاول بعض أمراء الأندلس توطيد سلطانهم على حساب الاسلام ذاته ، ولم يتورع بعضهم عن التحالف سراً مع ألفونسو السادس ، آملا في التمكن بمعونته من طرد المرابطين ، الــذين استدعوهم بأنفسهم من قبل .

ووقف أبو يعقوب يوسف بن تاشفين على جنوح الأمراء الأندلسيين ــ ملوك الطوائف ــ الى هذا الاتجاه من قائــده سير بن أبي بكر ، الذي عهد اليه بقيادة الجيش في اسبانية أثناء غيبته ، فعاد ابن تاشفين الى الأندلس بطلب من القضاة والفقهاء . كما أن أبا حامد الغزالي وأبا بكر الطرطوشي في الشرق الاسلامي أرسلا لابن تاشفين خطابا يحثانه فيه على خدمة الاسلام ، ويفتيانه في ملوك الطوائف ، وهذه القرائن تدل على أن العلماء والفقهاء والقضاة ، حتى الخليفة في بغداد ، مهّدوا ليوسف للايقاع بملوك

الطوائف . وهو جزاء عادل مناسب • واعتراف ابن تاشفين بسلطة الخلافة العباسي . أمال قلوب فقهاء الأندلس اليه ، فأصبح في نظرهم ونظر المسلمين الداعي الأكبر للخلافة العباسية ، وللوحدة الاسلامية : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » •

عبر ابو يعقوب بقوة ضخمة عبرت من سبتة الى الجزيرة الخضراء . ولم يطلب هذه المرة من الامراء المسلمين جندا لمعونته ، كما لم يعرضوا عليه معونتهم هم ، وسار على رأس جيشه الى طليطلة . ونفذ حتى ظاهر عاصمة قشتالة ، وسير فرقاً من جيشه نحو مختلف المدن . وسار بنفسه الى مدينة غرناطة •

وكان يوسف اشد ما يكون ارتيابا في أمير غرناطة عبد الله ابن بلكين بن باديس . وكان يتهم بالتحالف سراً مع ألفونسو • وفتح يوسف غرناطة بعد حصار شهرين ، لا كما تدعي بعض الروايات أنه فتحها غدرا وحيلة . فهذه ليست من شيم أبي يعقوب• وأرسل بعد الفتح عبد الله بن بلكين أسيراً الى أغمات بالقرب من مراكش •

امام سقوط غرناطة ، أرسل المعتمد بن عباد ، والأفطس رسلا يستوضحان الأمر ، فلقي الوفد من ابن تاشفين كل اعراض ، حتى انه رفض مقابلة ابن عباد والأفطس ، وهذا جزاء عادل لمن فرقوا كلمتهم أمام عدو وحد صفه •

كما ألقى ابن تاشفين القبض على تميم بن بلكين والي مالقة، وبعث به سجيناً الى افريقية ، ثم عبر الى سبتة ، لكي يعجل ارسال

الجند منها الى الأندلس ، وترك قائده سير بن أبي بكر في غرناطة على رأس الجيش المرابطي ، وسير الى الاندلس أربعة جيوش في وقت واحد ، كل منها تحت إمرة قائد خاص لتقضي على ملوك الطوائف ، وتقرر أن تكون الضربة الأولى الى أقواهم وأشدهم بأساً ، وهو المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وقرمونة واستجة وقرطبة ، وبقاع أخرى في مرسية ، فيفضي سقوطه الى سقوط الآخرين حتماً ، والجيوش الاربع كانت على النحو التالي :

١ ــ جيش بقيادة سير بن أبي بكر توجه الى إشبيلية .

٢ ــ وجيش سار الى قرطبة بقيادة أبي عبد الله بن الحاج ، وواليها آنذاك ولد المعتمد الفتح أبو ناصر .

٣ ــ وسار جرور اللمتوني الىأرض رندة بجيش ثالث،وفيها ولد آخر للمعتمد وهو يزيد الراضي بالله .

٤ ــ وسار أبو زكريا بن واسنو الى المرية ، وفيها المعتصم ابن صمادح ، صديق المعتمد الحميم .

وبقي يوسف بن تاشفين في سبتة على رأس جيش احتياطي، لكي يقوم عند الحاجة بانجاد هذا الجيش أو ذاك .

وقاد المعتمد جنده لمقاتلة المرابطين ، وحرص على ألا يشتبك معهم في معركة حاسمة ، فاشتبك معهم في عدة معارك صغيرة مؤملا بذلك أن ينهك قوى المرابطين ، ولكن وفرة عدد المرابطين ، وقتالهم في كل الأماكن ، فوت على المعتمد مراده ، فافتتح جرور اللمتوني

قرطبة في صفر ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، ولم يبق مع المعتمد سوى اشبيلية وقرمونة ، وبخاصة بعد مقتل ابنيه المأمون ويزيد الراضي بالله . ووصل المرابطون الى ضواحي طليطلة ، وأخذت سراياهم تهدد الأراضي النصرانية ، ثم استولوا على قلعة رباح ، ففتحت الطريق امامهم الى قشتالة . وفي هذه الآونة الخطيرة العصيبة ، استغاث أمير اشبيلية بألفونسو السادس ، ونسي ألفونسو عداءه المدمر . وعقد الخطر المشترك أواصر الصداقة بينهما .

وسقطت قرمونة بعد حصار قصير في ربيع الأول ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م . ولم يبق أمام أمير اشبيلية الا الاعتماد على امداد النصارى . وقد جاءته بالفعل بقيادة الكونت جومز ، وعدتها اربعون الف راجل وعشرون ألف فارس ، ووصلت الى مقربة من قرطبة . وهنالك لقيهم قائد من قادة المرابطين ، ابراهيم بن اسحاق، في جنده الشجعان . ونشبت بين الفريقين معركة حاسمة ، أصاب فيها المرابطون بالرغم من خسائرهم نصراً كبيراً مبيناً ، وغدت اشبيلية بعد فرار النصارى تحت رحمة المرابطين ، وكانوا قد ضربوا حولها الحصار ، وكان سير بن أبي بكر يقود الجيش المحاصر . وفتحت اشبيلية عنوة في رجب ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م.

وكانت خاتمة ابن عباد مأساة أليمة ، وكانت عبرة لتقلب الدهر . ذلك ان الرجل الذي لبث زهاء ربع قرن يقبض بيديه على مصاير اسبانية . والذي كان يحكم سواد النصف الجنوبي لشبه الجزيرة ، والذي يرجع اليه سبب استيلاء ألفونسو السادس على

طليطلة ، والذي استدعى المرابطين الى الأندلس ، اختتم حياته الباهرة في غمرة البؤس والحزن في ظلام السجن . فقد قبض عليه بعد سقوط اشبيلية ، وعلى نسائه وأبنائه وبناته ـ وهم نحو مائة ـ وارسلوا الى افريقية ، ومات في سجن أغمات[1] .

وهذه القسوة التي أظهرها ابن تاشفين نحو المعتمد ونحو باقي أمراء الأندلس ، جعلت بعض المؤرخين يضعون سحابة على سيرته لم تمحها الأعذار التي انتحلها آخرون لتبرير عمله[2] .

والواقع يقول ان ابن تاشفين لم يطمع في الأندلس ، وتردد كثيراً قبل العبور ، وعف عن الغنائم بعد الزلاقة ، وتركها للمعتمد ولأمراء الأندلس، ولم يأخذ منها شيئا، وكانت عودته، ثم يعود في الجواز الثاني بسبب اختلافات ملوك الطوائف ، وتحالف بعضهم مع عدو الاسلام ، وكان الجواز الثالث لوضع حد لمهزلة ملوك الطوائف ، لقد آن (وباسم الاسلام) لهذه الدويلات الضعيفة

---

(١) ومما يروى عن المعتمد ان زوجته الرميكية « اعتماد » ، رأت باشبيلية نساء البادية يبعن اللبن في القرب ، وهن رافعات عن سوقهن في الطين ، فقالت له : اشتهي آن أفعل انا وجواري مثل هؤلاء النساء ، فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد ، وصير الجميع طينا في القصر .. وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلك الطين . فكانت ـ بعد أن خلع ـ تتكلم معه مرة ، فقالت له : والله مارأيت منك خيرا ، فقال لها : ولا يوم الطين ؟ تذكيرا لها بهذا اليوم الذي أباد فيه من الاموال مالا يعلمه الا الله تعالى ، فاستحيت وسكتت . « نفح الطيب ، ج : ١ ، ص : ٤١٥ » .

(٢) المعتمد لم يسجن ولم يعذب ، بل كانت له اقامة جبرية ، بدليل أن زوجه كانت معه دائما ، وورد أن بناته اشتغلن بالغزل لكي يعلن والدهن ، فلو كان سجينا لما كانت زوجه معه ، ولما احتاج لاعالة بناته وشغلهن بالغزل ، ولم يعزل ابن تاشفين جميع ملوك الطوائف ، فقد ابقى احمد بن هود حاكم سرقسطة لجهاده ووقوفه في وجه النصارى بحزم واخلاص .

المتناحرة المتحالف بعضها مع الأعداء أن تنتهي ، وكما قال الشاعر محمود غنيم :

من عالج الباب العصي فلم يلن ليديه ، حَطَّم جانب المصراع

فقد شغله هؤلاء الامراء المتفرّقون عن الفتح والجهاد والمرابطة في افريقية لضعفهم وفرقتهم ، فلقوا جزاء خيانتهم وفرقتهم . وابن تاشفين خص الأمراء وحدهم بقسوته وعقابه ، وعفا عن الشعب المسلم ، لأن التناقض جلي بين مصلحة الشعب الذي طلب الاتحاد في وجه النصارى ، والأمراء الذين آثروا التفرق والخلاف ، حباً في الحكم ، وحفاظا على المصلحة الخاصة .

وهكذا افتتح المرابطون ولايات الأندلس كلها : غرناطة ، ومالقة ، وجيان ، وقرطبة ، واشبيلية ، والمرية ، في وقت لم يجاوز ثمانية عشر شهرا .

كما سقطت المرية بيد داود بن عائشة ، هذا القائد المشهور بانسانيته وحفظه للعهود .

ثم زحف داود بن عائشة وجنده ، وافتتح مربيطر وبلنسية وشنتمرية، ولم تغن أمراءهم معاونة الكمبيادور وفرسانه. فبلنسية كان بها يحيى بن ذي النون « القادر » ، وعلى الرغم من أنه كان ينضوي تحت حماية ملك قشتالة ، وقد خفت لانجاده فرقة كبيرة منهم ، وقوة من المرتزقة المسلمين من مرسية بقيادة ابن طاهر ، على الرغم من كل هذا سقطت بلنسية بيد المرابطين .

وبينما كان داود بن عائشة يفتتح شرق اسبانية ، كان سير بن أبي بكر يقتحم الغرب ظافرا ، فزحف الى ولاية بطليوس ، وأميرها يومئذ محمد بن الافطس « المتوكل » ، بعد أن فتح اشبيلية كما سلف ، فاستولى على شلب ويابرة ، ثم احتل بطليوس في صفر ٤٨٧ هـ / آذار « مارس » ١٠٩٤ م •

وفي الوقت الذي سقطت فيه بطليوس ، افتتحت سفن المرابطين جزر البليار ، وكان واليها يومئذ من بني شهيد ، أتباع أمراء بلنسية ودانية ، وأحسن المرابطون صنعاً بفتح الجزر الشرقية « بليار » في الوقت الملائم ، فقد كانت منعزلة تعيش تحت رحمة الاسطول النصراني ، وقد تم الفتح على يد الأسطول المرابطي بقيادة ابن تافرطست ، الذي خلفه على الجزر بتعيين منه « وانودين بن سير » •

وهكذا أصبحت اسبانيا المسلمة كلها بيد المرابطين سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، باستثناء ولاية سرقسطة حيث كان أبو جعفر احمد بن هود « المستعين بالله » الذي استفاد من نجدة المرابطين دون أن يفقد من سلطانه شيئا ، لموقفه المشرف المشهود في وجه الزحف النصراني •

كان يحكم سرقسطة أبو جعفر احمد بن هود « المستعين بالله » ، وكان يحاصرها جنود ألفونسو السادس حين الجواز الأول لابن تاشفين ، فأنقذت المدينة من الحصار ، وبعد انتصار الزلاقة الحاسم ، عاد بنو هود الى سرقسطة وما حولها : « لاردة ،

وشقة ، طرطوشة ، قلعة أيوب ، تطيلة ، وادي الحجارة •• » •
ولكن سانشو راميريز صاحب أراجون بما لديه من قوى ، وبما استقدم من مرتزقة فرنسيين ، سار محارباً من جبال البرانس الى نهر الايبر ، والتقى سانشو مع عشرين ألف مقاتل بابن هود وبعد قتال دار سجالا ، انسحب المستعين بالله أحمد بن هود الى قلعة وشقة ، وفكر بالاتصال بألفونسو لطلب المعونة ضد سانشو الذي كان يحسده ، ولكن هذا لم يتم ، وبقي محاصرا في وشقة ، واستطاع جند ابن هود قتل ملك أراجون « سانشو » ، خلال هجمات خارج القلعة ، ليخلفه ابنه الأكبر الدون بيدرو •

شدّد جيش النصارى الضغط على المستعين ، الذي أعجبته فتوح المرابطين في شرق وجنوب اسبانية ، وآثر أخيرا محالفة المرابطين إخوانه في الدين ، الذين قدروا موقفه على حدود النصارى في الثغور الشمالية ، فأرسل اليه يوسف ستة آلاف راجل ، وألف فارس كنجدة أولى ، ومع ذلك استطاع الدوق بيدرو أن يهزم المستعين هزيمة حاسمة في « الكرازة » ، وعلى أثر ذلك سقطت « وشقة » في يد النصارى سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م ، وحول بيدرو مسجدها الى كنيسة ، واتخذها مركزاً لمقاومته ، وكان لسقوط «وشقة» أهمية كسقوط طليطلة قبل أحد عشر عاماً •

وترتب على سقوط هذين المعقلين المنيعين ــ الكرازة ووشقة ــ أن فتح طريق الأرجونيين الى سرقسطة ، كما فتح طريق

القشتاليين الى الاندلس ، وثمة معقل ثالث هام هدد بسقوطه الشواطىء الشرقية لاسبانية المسلمة وهو « بلنسية » ، الذي سقط بيدالكونت رودريجو ديازدي بيفار، المعروف بالسيد الكمبيادور، وذلك في جمادى الأولى ٤٨٧ هـ / أيار « مايو » ١٠٩٤ ، ولقد استرد المرابطون هذا المعقل سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م •

ومما يذكر أن الكمبيادور عند احتلاله بلنسية عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م أمن قاضيها واسمه « ابن جحاف » ، ولكنه ــ على الرغم من وعده ــ أحرق القاضي في حفرة أضرم النار حولها ! هذه نقطة والنقطة الثانية : ان اسبانية لم تشترك في الحروب الصليبية في الشرق المسلم ، ففي هذه الأثناء سقط بيت المقدس بيد الصليبيين• وسبب عدم هذا الاشتراك انشغال اسبانية بحروب صليبية في اسبانية المسلمة •

في الأندلس ــ كما هو في الشرق ــ كانت سياسة المرابطين كمسلمين ملتزمين بدينهم ، سياسة مبنية على نشر الاسلام والحضارة والتسامح ، أما القشتاليون ، فقد كانت سياستهم صليبية مبنية على الهمجية والغدر ، ولا تستند الى علم أو حضارة•

لقد تجلت سماحة المسلمين بوفائهم التام بعهودهم ، وبمعاملتهم المثالية الانسانية للأسرى من أعدائهم • واتضحت روح التعصب الصليبي بنقض العهود ، وبحرقهم للقرى والزروع ، وبعيثهم فسادا في بسائط المدن ، وبتعذيب الاسرى وقتلهم بعد أمان ، وهذا مالم يفعله المسلمون أبدا خلال تاريخنا الاسلامي •

الجواز الرّابع

* سبب بقاء ابن تاشفين في الاندلس بعد الجواز الثالث ، فشل ملوك الطوائف الهزل في حماية الاندلس من الاخطار الخارجية •

لما خضعت اسبانية المسلمة كلها لصولة المرابطين ، بما في ذلك بنو هود الـذين أصبحوا تحت إمـرة المرابطين على الرغم من استقلالهم • عبر أبو يعقوب يوسف بن تاشفين العبور الرابع سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م بعد استرداد بلنسية بعام واحد ، يبتغي تنظيم شؤونها ، وليطلع على حسن سير الادارة ، ودعا القادة والولاة الى الاجتماع في قرطبة ، وقد عادت يومئذ قاعـدة الحكم في اسبانية المسلمة ، ودعا كبراء الأندلس أيضاً وزعماء القبائل المغربية التي تدين بالطاعة ليوسف ، وعين ولده الأصغر علياً «أبا الحسن» الذي يتفوق على أخيه تميم « أبي الطاهر » في المواهب والخلال اللازمة لحكم شعوب وأمم كثيرة •

وهذا نص الولاية كما كتبه الفقيه أبو محمد بن عبد الغفور: « أما بعد ، فان أمير المسلمين وناصر الـدين أبا يعقوب يوسف ابن تاشفين لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين ، خاف أن

يسأله الله غدا عما استرعاه . كيف تركه هملا لم يستنب فيه سواه، وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة ، وجعلها من أوكد الأشياء الكريمة . كيف في هذه الأمور العائدة بمصلحة الخاصة والجمهور ، وإن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة ، وخصه الله بها من النظر في هذه الأمور الدينية الشريفة ، قد أعز الله رماحه، وأحدّ سلاحه ، فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن اكثرها ارتياحاً الى المعالي واهتزازاً ، وأكرمها سجية ، وأنفسها اعتزازاً ، فاستنابه فيما استرعى ، ودعاه لما كان اليه دعا ، بعد استشارة أهل الرأي على القرب والتأني ، فرضوه لما رضيه ، واصطفوه لما اصطفاه ، ورأوه أهلا أن يسترعى في ما استرعاه ، فأحضره مشترطاً عليه الشروط الجامعة بينها وبين المشروط ، فقبل ورضي ، وأجاب حين دعي ، بعد استخارة الله الذي بيده الخير ، والاستعانة بحول الله الذي من آمن به شكره » . وبعد ذلك مواعظ ووصية بلغت من النصيحة مرامي قصية ، يقول في خاتمة شروطها وتوثيق ربوطها : كتب شهادته على النائب والمستنيب من رضي إقامتها على البعيد والقريب ، وعلم علماً يقيناً بما وصاه في هذا الترتيب ، وذلك في عام خمسة وتسعين واربعمائة[1] .

وبالنسبة للأندلس فقد أوصي يوسف بن تاشفين ابنه علياً بما يلي : ألا يعين في مناصب الحكام والقضاة في الولايات

---

(١) الحلل الموشية ، صفحة : ٥٦/٥٧ .

والحصون والمدن الا المرابطين من قبيلة لمتونة[1] ، وأن يحتفظ في الأندلس بجيش دائم حسن الأجر من المرابطين ، قوامه سبعة عشر ألف فارس ، يطعمون على حساب الدولة ، يوزعون كما يأتي : أربعة آلاف في ولاية سرقسطة ، وسبعة آلاف في اشبيلية ، وثلاثة آلاف في غرناطة ، وألف في قرطبة ، والباقي وقدره ألفان يحتلون قلاع الحصون كحامية ، ويحسن أن يعهد الى مسلمي الأندلس بحراسة الحدود النصرانية ومحاربة النصارى ، فهم أكثر خبرة ودربة على مقاتلة النصارى من المغاربة ، ويجب لاذكاء الأندلسيين أن يكافأ المتفوقون في الحرب منهم بالخيل والسلاح والثياب والمال .

ونصح أبو يعقوب أخيراً أن يُعامل أهل قرطبة المعروفون بالكبر وحب الشغب باللين والرفق ، وأن توثق أواصر الصداقة مع بني هود أمراء سرقسطة ، وهم طليعة الأندلسيين في محاربة النصارى .

ولما انتهى يوسف بن تاشفين من تنظيم شؤون الأندلس وقسّمها الى ست ولايات هي : اشبيلية ، غرناطة ، قرطبة ، بلنسية، مرسية ، وسرقسطة[2] . عاد الى افريقية، وتوفي في بيته بمراكش يوم

---

(١) ولكنه استوزر شخصيات أندلسية ، وأشركها في الحكومة ، وهذا العمل يهدف الاسترشاد بآراء وخبرة الشخصيات الاندلسية والقضاء على فكرة العنصرية ، والا فان المرابطين لم يكونوا عاجزين عن اتخاذ وزراء منهم فقط . فمناصب الحكام والقضاة من المرابطين ، ووزراء وموظفين كبار من الاندلسيين .

(٢) سقطت سرقسطه سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م . ومما يذكر أن المرابطين جعلوا قرطبة هي العاصمة في الاندلس ، ثم انتقلت في أول عهد علي بن يوسف الى غرناطة ، ثم عادت في أواخر عهده الى قرطبة .

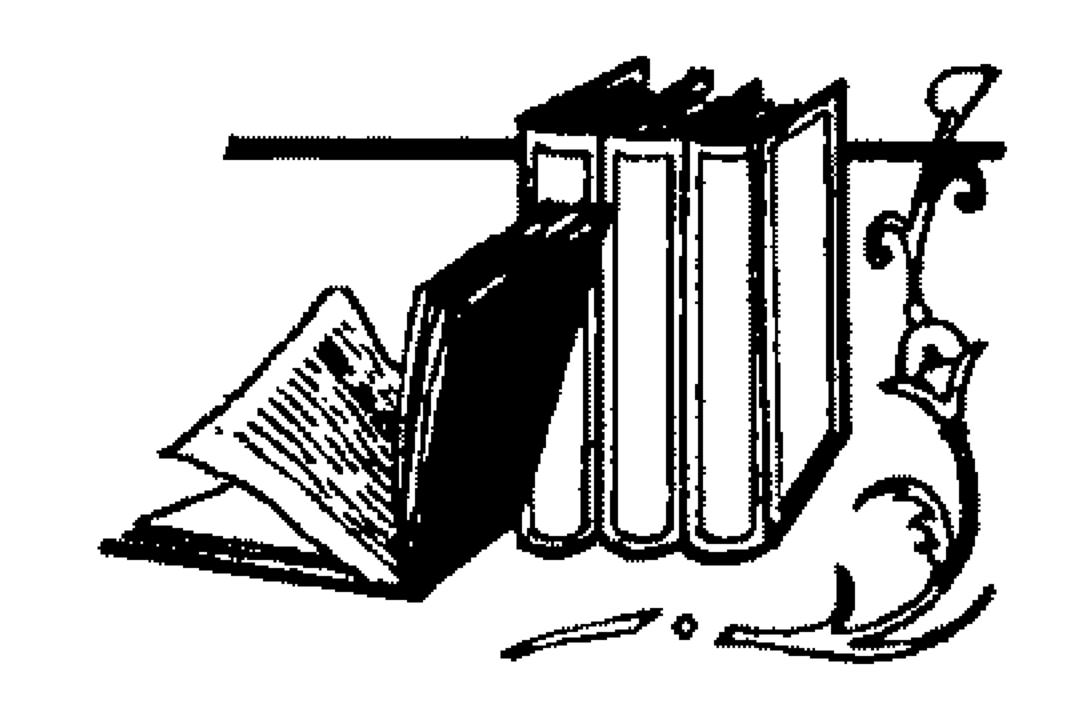
الاثنين ٣ المحرم سنة ٥٠٠ هـ / ايلول (سبتمبر) سنة ١١٠٦ م ، وقد بلغ من العمر نحو مائة عام ، بعد حياة طويلة ، وحكم حافل بجلائل الأعمال .

وهكذا مرت سياسة المرابطين في الأندلس بمراحل ثلاث :

١ ــ مرحلة التدخل من أجل الجهاد وانقاذ المسلمين ، وقد انتهت بانسحاب المرابطين بمجرد انتصار الزلاقة .

٢ ــ مرحلة الحذر من موقف ملوك الطوائف ، بعد أن ظل وضعهم وضع التنافر والتحاسد والتباعد، ولم يفكِّروا في الاندماج في دولة واحدة ، بل فضل بعضهم التقرب الى الأعداء للكيد بعضهم .

٣ ــ مرحلة ضم الأندلس الى المغرب . فوضعوا حداً لمهزلة ملوك الطوائف .



نَظَرَاتٌ فِي حَيَاةِ أَبِي يَعْقُوب

★ كانت دولة ابن تاشفين دولة خير وجهاد وعافية ، واكثر الدول جريا على السنة.

ابو يعقوب يوسف بن تاشفين أحد أولئك الرجال الأفذاذ الذين يبدو أن القدر قد اصطفاهم لتغيير وجهة سير الأحداث في التاريخ . فهو الذى جعل من افريقية الممزقة شر ممزق ، دولة عظيمة موحدة . وهو الذى بث ـ بما استحدث من نظم وأساليب ـ روحاً قوية في القبائل والشعوب التي حكمها ، وقد أفضت هذه الروح الى تحقق العجائب .

إن انتصار الزلاقة العظيم ، لم يجعل أبا يعقوب يوسف بن تاشفين فاتحاً كبيراً فحسب ، بل مجاهدا في سبيل الاسلام ، وقد كان الاســـلام على وشك الانهيـــار في شبه الجزيرة ، فبث في الأندلسيين روحاً جديدة ، وقوة عظيمة للثبات .

إن قسوة ابن تاشفين في اخضاع أمراء الاندلس (ملوك الطوائف) له ما يبرره ، فهم الذين استغاثوا بـــه واستصرخوه لنجدتهم في جواز المضيق الأول ، وهم الذين ألحوا عليه لجوازه الثاني ، وترك أبو يعقوب الأندلس مرة بعد مرة في الجوازين الأول

والثاني ، وهذا يدل على دين متين تحلى به مع جنده المرابطين ؛ وبخاصة أننا نعلم ، أنه ترك غنائم الزلاقة لملوك الطوائف ، ولم يأخذ منها شيئا، مكتفياً بنصرة الاسلام،ووقف زحف النصارى[1].

وعلى الرغم من الخطر الداهم، بقي ملوك الطوائف على أثرتهم وأنانيتهم ، متفرقين وقلوبهم شتى ، متناحرين لا يهمهم إلا ذاتهم ، أمام عدو وحد صفه . لذلك ، فان جمهرة المسلمين في العالم الاسلامي كله ، لم تر في يوسف بن تاشفين فاتحاً متغلباً قاهراً ، بل **رأت فيه ، منقذا بحق ، واعتبرته بصدق يد العناية الالهية لمعاقبة الأمراء الباغين العابثين ، اللاهين عن الجهاد بملاذهم وترفهم .**

لقد أسس ابن تاشفين دولة المرابطين الشاسعة ، من المحيط الأطلسي غرباً الى مقربة مصر شرقاً ، ومن البحر المتوسط حتى حدود بلاد النيجر ، مشتملة على الصحراء الكبرى التي اخترقتها قوافل المرابطين بلا منازع ، وفي اسبانية من نهر أيبرو الى مصب الوادي الكبير .

ولم يرهق أبو يعقوب الشعوب التي حكمها بالضرائب ، ففي مضيق جبل طارق لم تفرض في عهده مكوس قط ، أو ضرائب أو رسوم ، لا في المدن ، ولا في القرى ، وكان دخل الدولة يتكون من التبرعات ، ومن الأعشار ، ومن أخماس الغنائم فقط .

---

(١) يقول ابن خلكان عن الغنائم : « فلما حصلت عف عنها يوسف بن تاشفين ، وآثر بها ملوك الطوائف ، وعرفهم أن مقصوده انما كان الغزو ـ الجهاد ـ لا الغنائم ». وفيات الاعيان .. ج : ٧ ، ص : ١١٧ .

ومنذ ظفر الزلاقة ، غير أبو يعقوب نقش السكة ، ونقش في أحد وجهيها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وتحته : « أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين » ، وكتب في الدائرة الآية الكريمة : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » . ونقش على الوجه الآخر ما يفيد الاعتراف بسلطة الخلافة العباسية الروحية ونصه : « الأمير عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسي » ، وفي الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته ، ولقد كان الدينار المرابطي النقد الدولي يومئذ بسبب سمعة المرابطين الممتازة ، واقتصادهم المتين ، ورفاهية دولتهم .

كذلك امتدح يوسف بن تاشفين لمأثور عدله[1] ، ومن الأمثلة المشرقة الرائعة عنه ، أنه لما كتب الى أهل المرية للمساهمة في معونة الجهاد ، رفض قاضيها الفقيه أبو عبد الله بن الفراء « المستشهد في موقعة قتندة سنة ٥١٤ هـ » ذلك في كتابه الى يوسف ، ما لم يحلف أمام الناس في جامع مراكش أن ليس لديه في بيت المال درهم ينفقه ، وحينئذ يستوجب ذلك[2] .

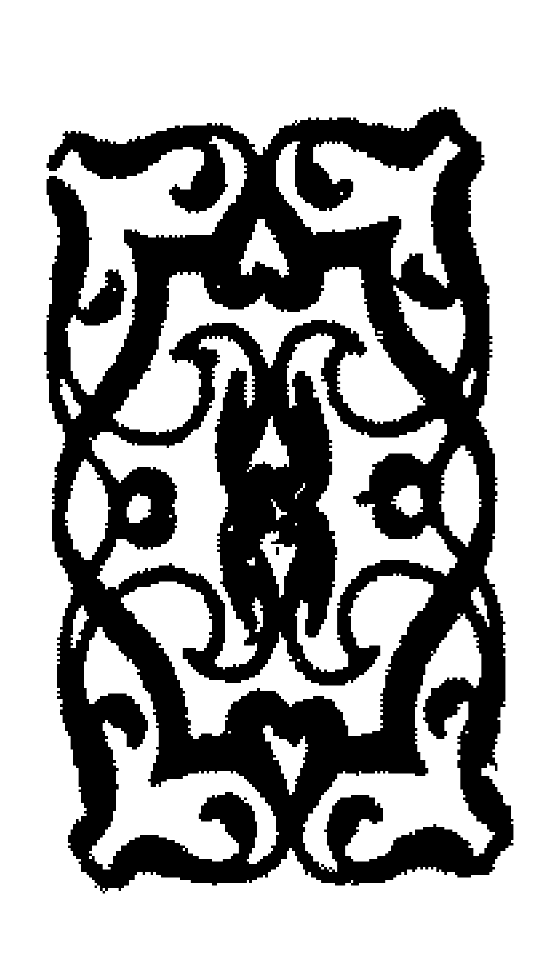
وامتدح لمأثور عدله في أحكامه ، وألغى حكم الاعدام

---

(١) مما يذكر ، أن يوسف بن تاشفين لما فتح مدينة فاس خرب السور الفاصل بين عدوتيها وقال : (انما اسوارنا سيوفنا وعدلنا) .

(٢) نص الفتوى : « فلتدخل المسجد الجامع هنالك بحضرة أهل العلم وتحلف أن ليس عندك درهم واحد ، ولا في بيت مال المسلمين ، وحينئذ تستوجب ذلك » ، راجع: وفيات الاعيان وأبناء أبناء الزمان لابن خلكان ، ج : ٧ ، ص : ١١٩ . طبعة دار الثقافة ـ بيروت .

إلا فيما أمر الله عز وجل ، وجعل السجن المؤبد أقصى عقاب يمكن توقيعه على مذنب ، وعمل على تبسيط الاجراءات القضائية ، وكان يطوف بولايات دولته من وقت الى آخر لكي يشرف على تنفيذ أوامره ، ولكي يقف بالأخص على مبلغ رفاهية الشعب ورضاه وعلى ظلامته وآلامه إن وجدت . ولما عهد الى ابنه علي من بعده ، كان يأمل في بقاء وحدة الصف ، وعدم انفصام عرى هذه الوحدة التي حققها بجهد كبير في دولته ، داعياً الله سبحانه ألا تعود الفوضى الى البلاد .



خاتمة

★ سقوط حصن اقليش ذروة مجد المرابطين ، ويعتبر : « الزلاقة الثانية » .

تولى علي بن يوسف بن تاشفين الحكم بعد أبيه ، ولم يكن قد جاوز الثانية والعشرين من عمره ، فأبدى في حكمه كثيرا من الحكمة والعدالة ، مما أكسبه محبة شعبه وتقديره .

وعبر علي الى اسبانية عدة مرات ، منها عبور سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م ، وعهد بالقيادة العليا الى أخيه الأكبر تميم «أبي الطاهر» الذي عين أيضا واليا لإشبيلية ، فسار بجيش ضخم الى حدود النصارى ، وحاصر قلعة أقليش المنيعة ، فأرسل ألفونسو السادس ابنه الوحيد « سانشو » لفك الحصار عنها . فلما اقترب جيش القشتاليين ، هجم المرابطون المسلمون عليه ، فقتلوا من القشتاليين عشرين ألفا ، وتسعة من كونتات قشتالة ، وقائد الجيش سانشو ابن ألفونسو السادس .

ويمكن أن نعتبر انتصار المرابطين في أقليش في ٢٩ أيار « مايو » سنة ١١٠٨ م ذروة سلطانهم في اسبانية ، ومن ذلك التاريخ بدأت قوتهم تنحدر عاما بعد عام ، كما بدأت روح الخروج والثورة

بسلطانهم ــ في الأندلس وافريقية ــ تلوح في الأفق ، وغــدا سقوطهم القريب أمرا محتوما •

لقد حلَّت سنة ٥١٢ هـ وسقطت سرقسطة في يد النصارى بعد دفاع مشرِّف من لدن سكانها الذين وصلتهم نجدة متأخرة من المغرب ، ورد أبو الطاهر تميم الاسبان النصارى عن لوردة بعد أن كبدهم خسائر جسيمة ، غير أن الأرجونيين توسعوا جنوب نهر إبرة •

وفي عام ٥١٣ هـ ، استولى النصارى على قلعة أيوب ، فجاز علي بن يوسف مرة أخرى الى الأندلس ، وفتح سنتمرية ، ولم تمض سنتان بعد هذا التاريخ ، حتى ظهر بمدينة سوس في المغرب الافريقي المهدي بن تومرت ، وجرت بظهوره أحداث خطيرة تتركها الى دولة الموحدين ومعركة « الأرك » • ومع ظهور ابن تومرت في المغرب ، اتفق المعاهدون في غرناطة على نقض عهودهم للمسلمين ، فسببوا قلقا للدولة •

توفي تميم بن يوسف سنة ٥٢٠ هـ ، فخلفه على الأندلس ابن أخيه تاشفين بن علي ، ومحمد بن غانية على الجزائر الشرقية « جزر البليار » ، وتوفي علي بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ ، ولم يكدر صفو ملكه شيء ، أكثر من ظهور المهدي بن تومرت •

حكم تاشفين بن علي بعد أبيه ، فنجح في غزواته في اسبانية ، ولكنه فشل في وجه الموحدين الذين هزموه في معركة جرت قرب تلمسان ، تُعرف باسم « يوم منداس » ، ومات سنة ٥٣٩ هـ بعد

ان ضيق عليه الأمير الموحدي عبد المؤمن في حصنه على شاطىء وهران ، فخلفه ابنه ابراهيم الذي كان عاجزا عن تدبير الأمور ، ومواجهة خطر الموحدين ، فخلعه المرابطون ، وعينوا مكانه اسحق بن علي بن يوسف ، وكان دون البلوغ . وفي سنة ٥٤٠ هـ استولى عبد المؤمن على فاس ، ثم فتح مراكش عام ٥٤١ هـ بعد حصار تسعة اشهر ، وقتل شيوخ المرابطين وأميرهم اسحق ، لتنتهي بذلك دولة المرابطين كحلم سعيد عزيز مرّ على ذاكرة المسلمين في المغرب والأندلس .

* * *

تربّع المرابطون على كرسي الحكم قرابة قرن (٤٣٠ — ٥٤١ هـ) ، (١٠٣٨ — ١١٤٧ م) ، وكان من الممكن أن تستمر دولتهم اطول لولا العوامل التالية التي أدت الى سقوط دولتهم[١]:

١ — التزم المرابطون بتعاليم المذهب المالكي ، الذي نشره بينهم عبد الله بن ياسين ، فاحترم أمراء المرابطين فقهاء المالكية ، ولم يصدروا عن رأيهم . وفقهاء المالكية هم الذين أحرقوا كتاب [إحياء علوم الدين] للغزالي ، تعصّباً الى كل ما ينسب الى مذهب مالك من غير أية مناقشة ، حتى أن بعضهم كفّر كل من قرا كتاب الاحياء .

إن التحجّر في التفكير ضيق على حرية المذاهب ، ولم يرتفع

(١) العرب عبر التاريخ ، جـ : ١ ، ص : ١٨٢ .

صوت قوي يعارض هذا التحجر في التفكير والمعتقد ، أو يضع حداً للتضييق على حرية المذاهب ، حتى ظهر المهدي بن تومرت ، الذي لقن اتباعه تعاليم جديدة .

فاتساع نفوذ الفقهاء المالكيين ، وتحجر تفكيرهم ، وتعصبهم الأعمى لمذهبهم ، كان السبب الأول في سقوط دولة المرابطين .

٢ ـ لم يهتم علي بن يوسف بأمر المهدي بن تومرت عند بثه لتعاليم جديدة معارضة لفقهاء المالكية ، رغم نصح مالك بن وهيب الذي كان يجالسه ، وان كان المهدي قد فشل في الاستيلاء على مدينة مراكش ، فقد نجح خلفه عبد المؤمن في اقتحام المدينة .

فظهور الموحدين ، عامل آخر في سقوط دولة المرابطين .

٣ ـ بدأت حياة الرفاه تدب في المرابطين بعد فتح الأندلس وذلك بعد تقشف . ولما هاجم الموحدون المرابطين في المغرب ، لم يستنجد المرابطون بجيشهم المتواجد في الأندلس في الوقت المناسب ، بسبب انشغال الجيش في حروبه مع النصارى ، وانتهز سكان الأندلس فرصة هجوم النصارى على الثغور الشمالية ، وفرصة اضطراب الأحوال بالمغرب ، فطردوا ولاة المرابطين ، وتوزعوا مدن البلاد فيما بينهم .

وإذا كانت الحالة السيئة بالأندلس لا تشكل عاملا مباشراً في سقوط المرابطين ، فقد كان من الممكن أن ينجد الأندلسيون من قدّم لهم المعونة مرات عديدة ، لكنهم نسوا جواز أبي يعقوب

يوسف بن تاشفين الجواز الأول والثاني ، نسوا انتصار الزلاقة ، ونسوا « الزلاقة الثانية » عندما سقط حصن أقليش بيد المسلمين ، فضاع المعروف مع غير أهله .

فاختلال الأوضاع في المغرب والأندلس سبب آخر ، وعامل من عوامل سقوط دولة المرابطين .

* * *

وأخيرا نقول : رحم الله أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، الذي شغل بالأندلس بسبب ملوكها الهزل ، هؤلاء الملوك الذين لو كانوا يداً واحدة قوية في وجه الاسبان ، لكانت افريقية كلها إسلامية منذ القرن الخامس الهجري ، ولتفرغ [رحمه الله وجعل روحه في عليين مع النبيّين والشهداء] والمرابطون من بعده لافريقية كليا دعوة وجهادا ونشر اسلام .

وإن كانت في طيات هذا الجزء من « المعـارك الكبرى في تاريخ الاسلام » عبرة وعظة ، فاننا نلخصها بما يلي : إن الشعب المسلم في الأندلس لما خضع لأهواء أمرائه وفرقتهم ، وترك الجهاد وحياة الجد والمسؤولية ، وغاص في نعيم لاه ، وترف ماجن ، أصبح عرضة لصولة العدو ، ونقصت الأرض من أطرافها تحت أقدامهم ، ولاح في جنبات دولهم الفنـاء ، الى أن قيض الله عز وجل شعباً مسلماً ملتزما ، تربى على الخشونة وترك الدعة والميوعة جانبا ، فأنقذ الأندلس الى حين .

وهذه سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

إنه قانون الله في عباده ، ولن تجد لقانون الله تحويلا ..

يقول عز وجل : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » ، [الاسراء : ١٦] .

وهذا ما ينطبق على ملوك الطوائف وحالهم .

بينما المسلم الحق ، في تربيته المثالية :

يقول عز وجل : «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » ، [التوبة : ٢٤].

فما حققت أمة ــ في يوم من الأيام ــ نصراً بدعة ، ولا أحرزت فوزاً بترف ونعيم وخمور وغانيات وموشحات ، ولا سلمت وصانت حدودها إلا بخشونة شبابها ، ووحدة صفها وعقيدتها ، وتماسك أفرادها .. وما تركت أمة لواء الجهاد إلا ذلت ..

اللهم إني قد بلغت ، اللهم فاشهد .

والحمد لله رب العالمين أولا وآخراً .

* * *

جدول أمراء المرابطين

★ راجع معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، لزامباور ، صفحة : ١١٣ » .

ـ يحيى بن ابراهيم الجدالي ، استقدم عبد الله بن ياسين الجزولي من القيروان حوالي سنة ٤٤٠ هـ ، فبدأت دعوة المرابطين، الذي انضم اليها :

١ ـ يحيى بن عمر ، الذي تولى بعده أخوه حوالي سنة ٤٤٦ هـ :

٢ ـ ابو بكر بن عمر ، الذي تنازل الى :

٣ ـ يوسف بن تاشفين عام ٤٦٣ هـ ، فحكم حتى ٥٠٠ هـ .

٤ ـ علي بن يوسف بن تاشفين (حكم حتى رجب ٥٣٧هـ).

٥ ـ تاشفين بن علي (حكم حتى رمضان ٥٣٩ هـ) .

٦ ـ ابو اسحاق ابراهيم بن تاشفين (حتى شوال ٥٤١ هـ).

٧ ـ اسحق بن علي بن يوسف (حتى عام ٥٤٢ هـ) .

مُلوكُ الطَّوائِفِ

« العهد الأول : من انتهاء الخلافة الأموية في الأندلس ، الى تدخل المرابطين » .

١ ــ بنو حَمُّود	بمالَقَة	٤٠٧ــ٤٤٩ هـ
٢ ــ بنو حَمُّود	بالجزيرة الخضراء	٤٣١ــ٤٥٠ هـ
٣ ــ بنو عباد	باشبيلية	٤١٤ــ٤٨٤ هـ
٤ ــ بنو زيري	بغرناطة	٤٠٣ــ٤٨٣ هـ
٥ ــ بنو برزال	بقرمونة	؟ ــ٤٣٤ هـ
٦ ــ أبو نور بن أبي قرة	برندة	٤٠٥ــ٤٤٥ هـ
٧ ــ بنو نوح	بمورون	٤٠٤ــ٤٤٥ هـ
٨ ــ ابن خزرون	بأركش	؟ ــ٤٤٥ هـ
٩ ــ البكريون	بولبة وشلطيش	؟ ــ٤٤٣ هـ
١٠ ــ بنو يحيى	بلبلة	٤١٤ــ٤٤٣ هـ
١١ ــ بنو مَزْين	بشلب	٤١٩ــ٤٤٤ هـ
١٢ ــ أبو عثمان سعيد بن هارون	بشنت مارية	٤٠٧ــ٤٤٤ هـ
١٣ ــ ابن طيفور	بمارتلة	؟ ــ٤٣٦ هـ

١٤ — بنو رزين (أبو محمد هذيل)	بالسهلة	٤٠٢—٤٩٧ هـ
١٥ — بنو القاسم	بألفنت	؟ —٤٨٥ هـ
١٦ — بنو جَهْوَر	بقرطبة	٤٢٢—٤٦٩ هـ
١٧ — بنو الأفطس	ببطليوس	٤١٣—٤٨٧ هـ
١٨ — بنو ذي النون	بطليطلة	٤٠٠—٤٧٨ هـ
١٩ — العامريون	ببلنسية	٤١٢—٤٩٥ هـ
٢٠ — بنو صمادح	بالمريّة	؟ —٤٨٠ هـ
٢١ — بنو تجيب وبنو هود	بسرقسطة ولاردة وقلعة أيوب وتطيلة	٤١٠—٥٣٦ هـ
٢٢ — طرطوشة	كان فيها مجاهد العامري	؟ —٤٥٣ هـ
	وكان أيضا بدانية والجزر الشرقية	٤٠٨—٤٨٠ هـ

✶ « راجع معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، لزامباور » صفحة : ٨٦ وما بعدها .



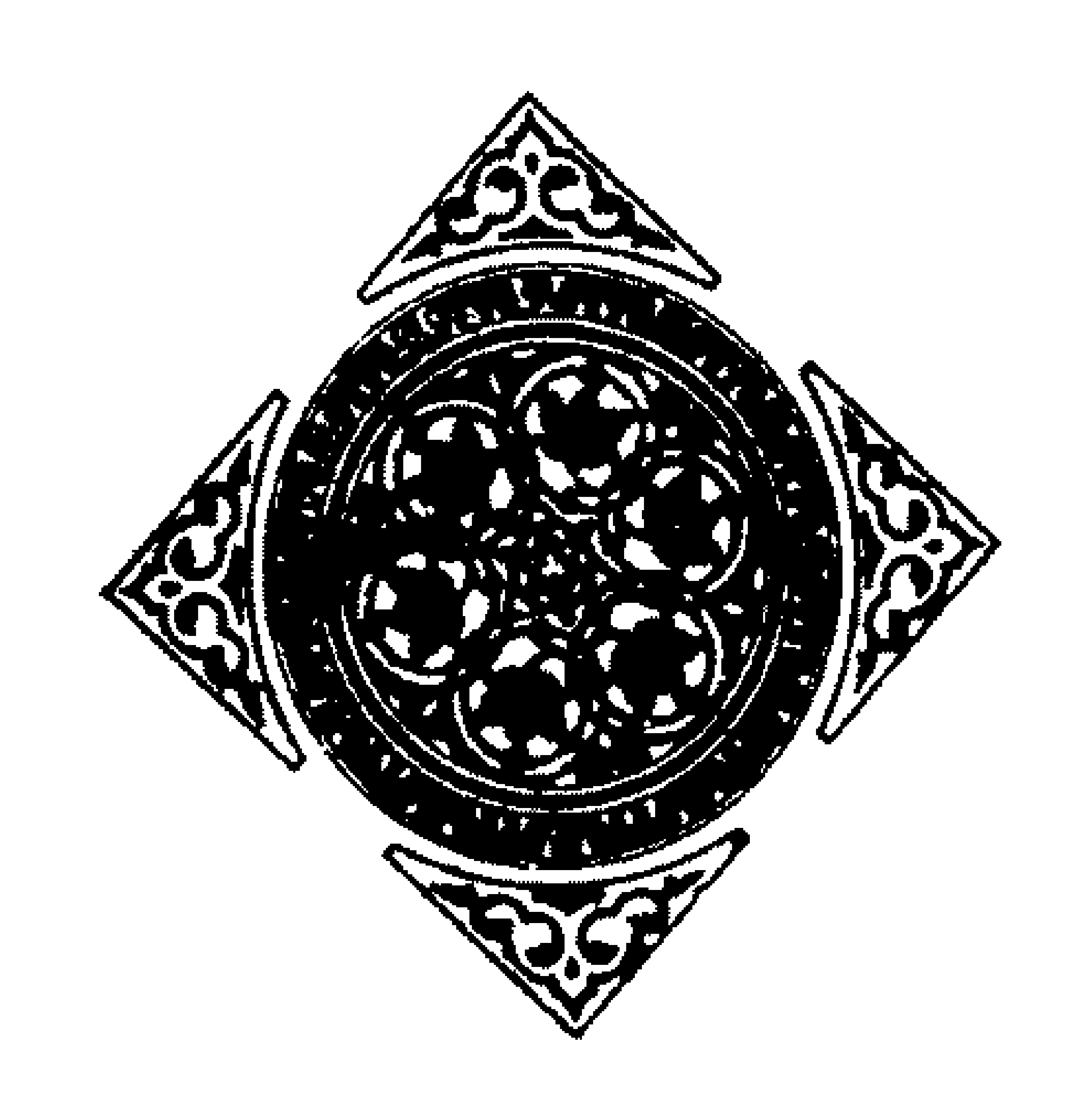
ضَبطُ شَكلِ أَهَمِّ الأَسمَاءِ وَالأَمَاكِن

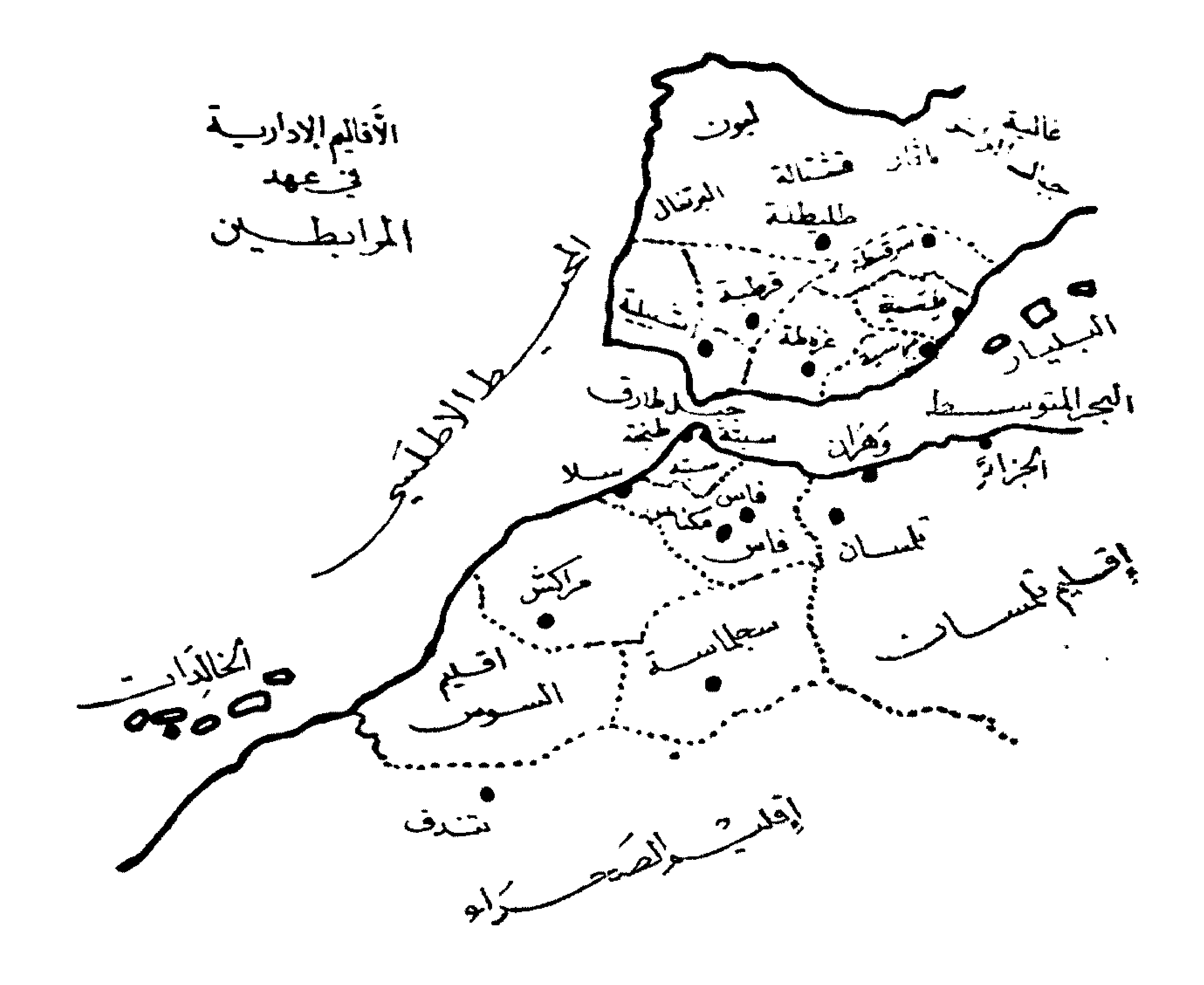
الزّلاقة :	Zallaca
الزّلاقة :	Sacralias
إشبيلية	Sevilla
إستجة	Ecija
أغمات	Agmet
الأرَك	Alarcos
أشتوريش	Asturias
المَريّة	Almeria
أدفُنش	Alphonso
إشبيلية	Seviua
أربونة	Narbona
أقليش	
بَلنسية	Valence
بطليوس	Badajos
البشكنس	
برشلونة	Barcelona
بنبلونة	Ponplona

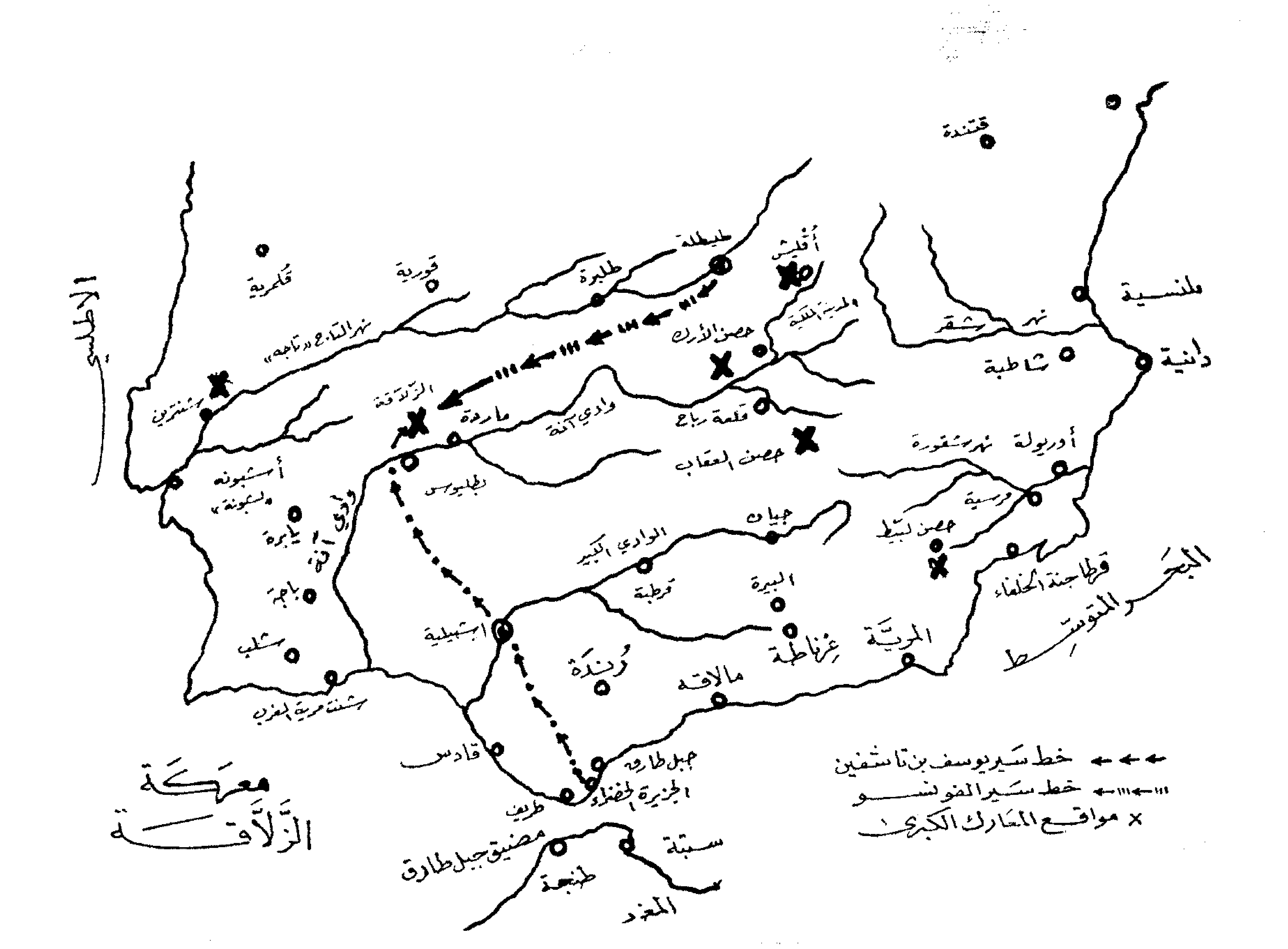
تدمير	Tudmir
تطيلة	Tudele
دانيـة	Denia
رُندَة	Ronda
سَرَقُسطَة	Saragossa
سَرَقُسطَة	Zaragossa
السهلة	Sahla
شاطبة	Jutiva
شنترين	Santarein
شذونة	Sidonia
شِلْب	Silves
سانْجة	Sancho
شَنتَمَرية	Albarracin
طُلَيطُلَة	Toledo
طُرطوشَة	Tontosa
غَرناطَة	Granada

غَرْسِيه بن شَانْجُة •

قرمونة	Carmona
قلعة أيوب	Calatayuab
قَوْرِيَة	Coria
قُرقَشونة	Corcassonne
قَشْتَالَة	Castilla
لَمْتُونة	
لبلة	Nieblu
لاردة	Leridu
مَالَقة	Malaya
مورون	Moron
ماردة	Merida
مَرّاكُش	Morocco
مُرْسِيَة	Murcia
الموحدون	Almohudes
المرابطون	Almoravides
يابُرَة	Euora
يوسُف بن تاشِفِين أو تاشُفِين	




الأقاليم الإدارية
في عهد
المرابطين
ليون
قشتالة
البرتغال
طليطلة
سرقسطة
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
بلنسية
مرسية
البليار
البحر المتوسط
المحيط الاطلسي
جبل طارق
سبتة
طنجة
سلا
وهران
الجزائر
فاس
مكناس
تلمسان
إقليم تلمسان
مراكش
سجلماسة
اقليم السوس
الخالدات
تندف
إقليم الصحراء



معركة
الزلاقة
الأطلسي
البحر المتوسط
خط سير يوسف بن تاشفين
خط سير ألفونسو
مواقع المعارك الكبرى
طليطلة
طلبيرة
قورية
قلمرية
نهر التاج «تاجه»
شنترين
أقليش
المدينة السليمة
حصن الأرك
الزلاقة
ماردة
وادي آنة
قلعة رباح
حصن العقاب
بطليوس
أشبونة «لشبونة»
يابرة
باجة
شلب
شنت مرية الغرب
بلنسية
شقر
شاطبة
دانية
قنندة
أوريولة
نهر شقورة
مرسية
حصن لبيط
قرطاجنة الحلفاء
جيان
الوادي الكبير
قرطبة
البيرة
غرناطة
المرية
إشبيلية
رندة
مالقة
قادس
جبل طارق
الجزيرة الخضراء
طريف
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة
المغرب

المحتوى

صفحة

للمؤلف

١ ـ الإسلام في قفص الاتهام (ترجم إلى الفارسية)
٢ ـ مَنْ ضيَّع القرآن ؟
٣ ـ الإنسان بين العلم والدين
٤ ـ هارون الرشيد
٥ ـ غريزة .. أم تقدير إلهي ؟
٦ ـ آراء يهدمها الإسلام
٧ ـ الإسلام وحركات التحرر العربية
٨ ـ عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي
٩ ـ الهجرة « حدث غيَّر مجرى التاريخ »
١٠ ـ جرجي زيدان في الميزان

☆ ☆ ☆

غزوات الرسول الأعظم

بَدر الكبرَى	:	رمضان ٢ هـ ـ كانون الثاني ٦٢٤م
غزوَة أُحُد	:	شوال ٣ هـ ـ كانون الثاني ٦٢٥م
غزوَة الخندق	:	شوّال ٥ هـ ـ شباط ٦٢٧م
صلح الحديبيَة	:	ذي القعدة ٦ هـ ـ شباط ٦٢٨م
غزوة خَيبَر	:	المحرّم ٧ هـ ـ آب ٦٢٨م
غزوة مؤتة	:	جمادى الأولى ٨ هـ ـ إيلول ٦٢٩م
فتح مكة	:	رمضان ٨ هـ ـ كانون الثاني ٦٣٠م
حُنَين والطائف	:	شوّال ٨ هـ ـ شباط ٦٣٠م
غزوة تَبُوك	:	رجب ٩ هـ ـ تشرين الأول ٦٣٠م
«حُروبُ الرِّدَة»	:	«في خلافة الصّديق سنة ١١ هـ»